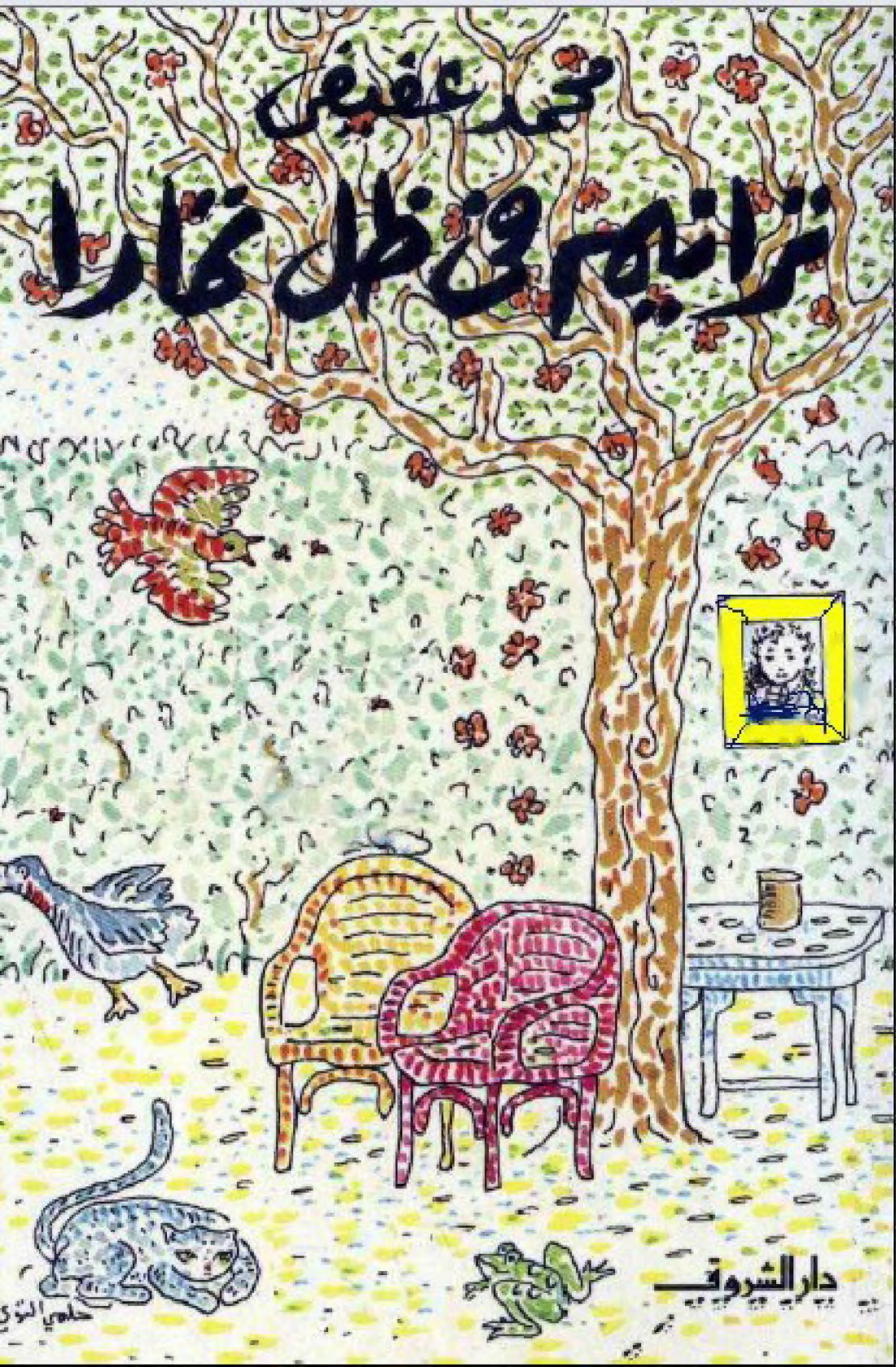


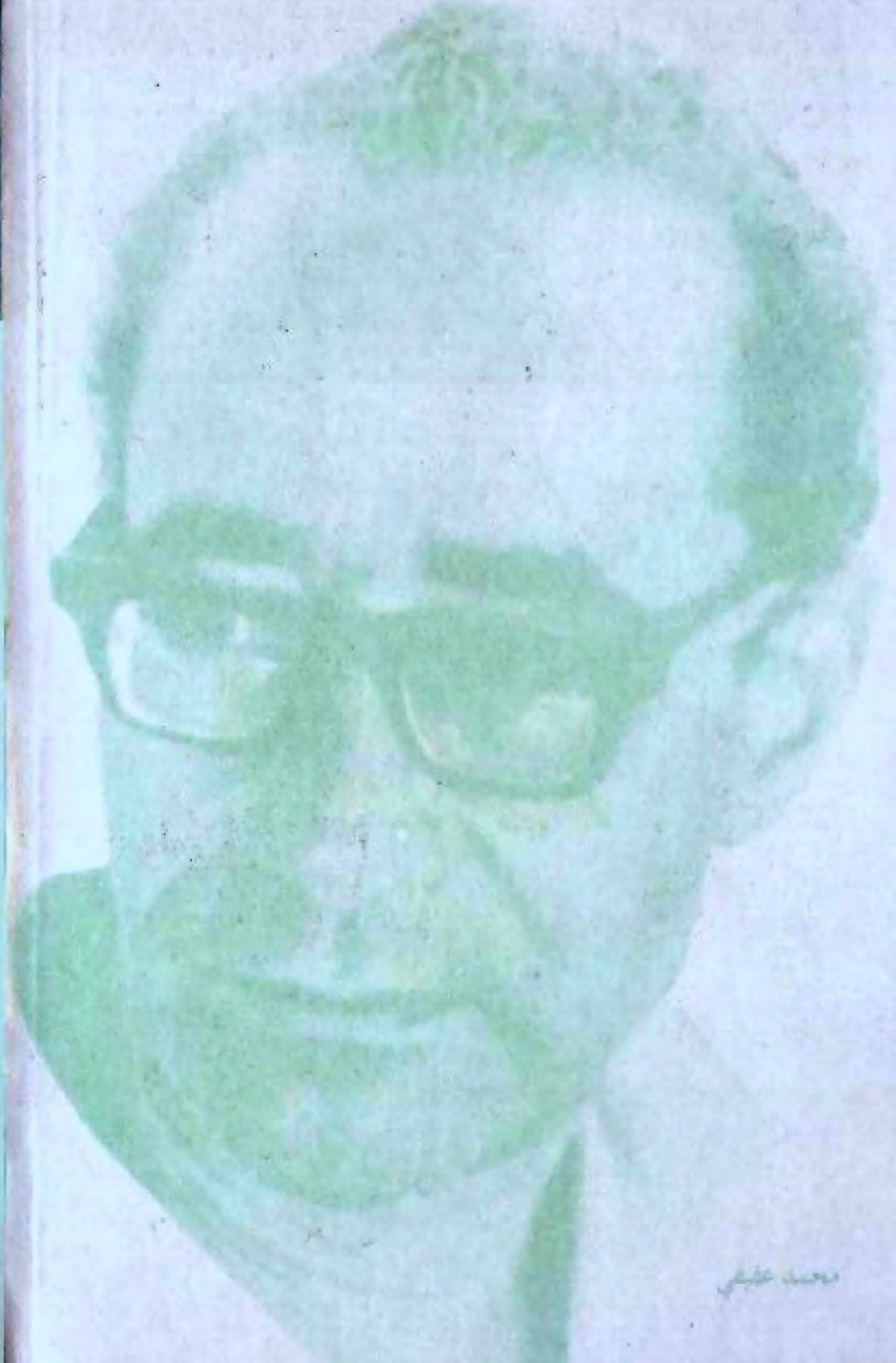
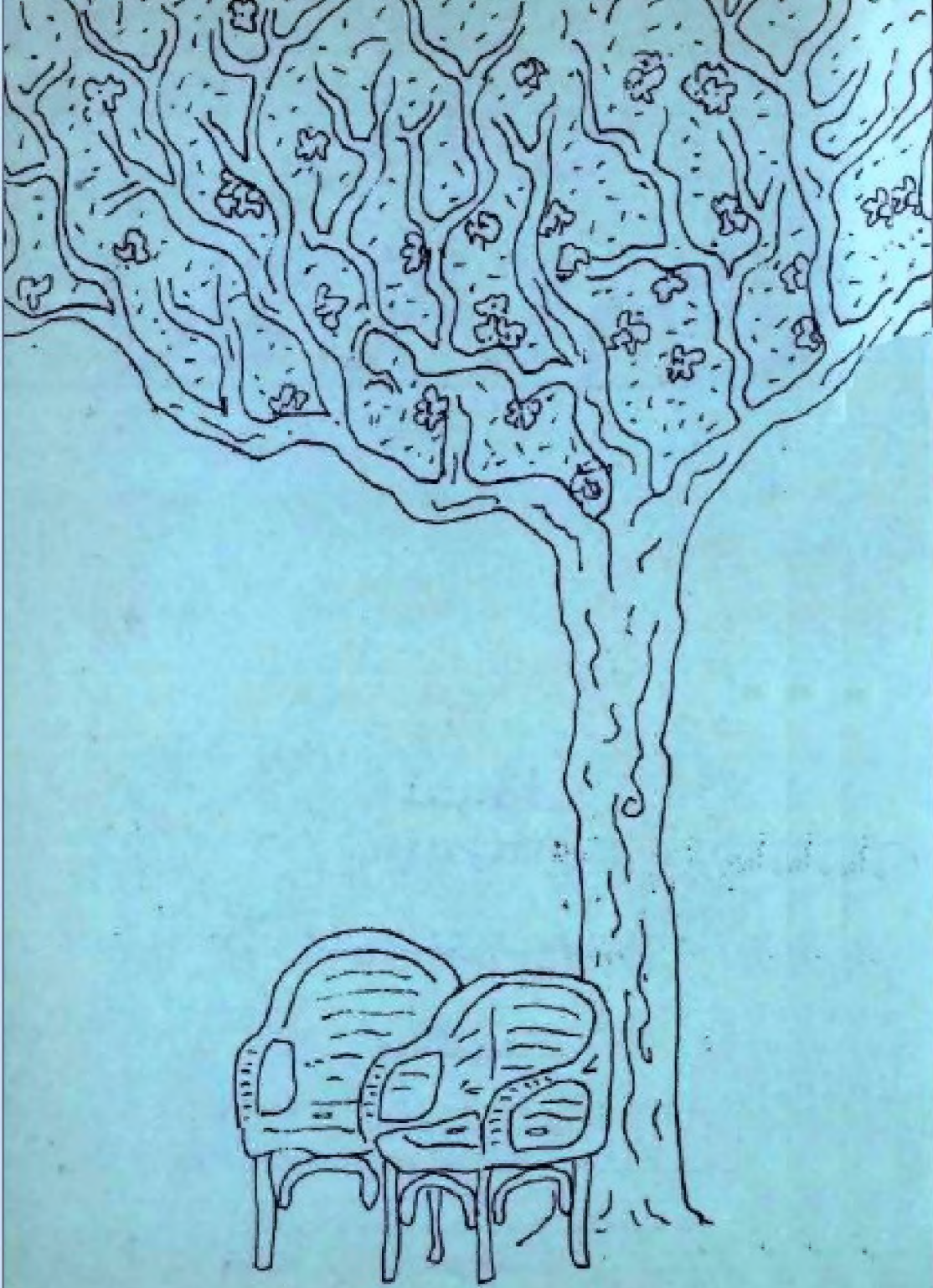
محمد عفيفي

نراهم في ظل غارنا



دار الشروق

حلمي التوي



محمد عفيفي ترانيم في ظل قمارا

:: سهر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت - ص.ب. ٨٩٤ - هاتف: ٣١٥٨٨٩ - ٣١٥٩٠١ - بولي - الشروق

تلفون: SHOROK BOOKS L.B.

القاهرة - ١٦ شارع نواحي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٨١٥ - بولي - الشروق

تلفون: 9001 SHOROK LN.

SHOROK INTERNATIONAL: 28/28 RESIST STREET, LONDON W1, UK. TEL: 037234314

TELEX: SHOROK 257780

دار الشروق

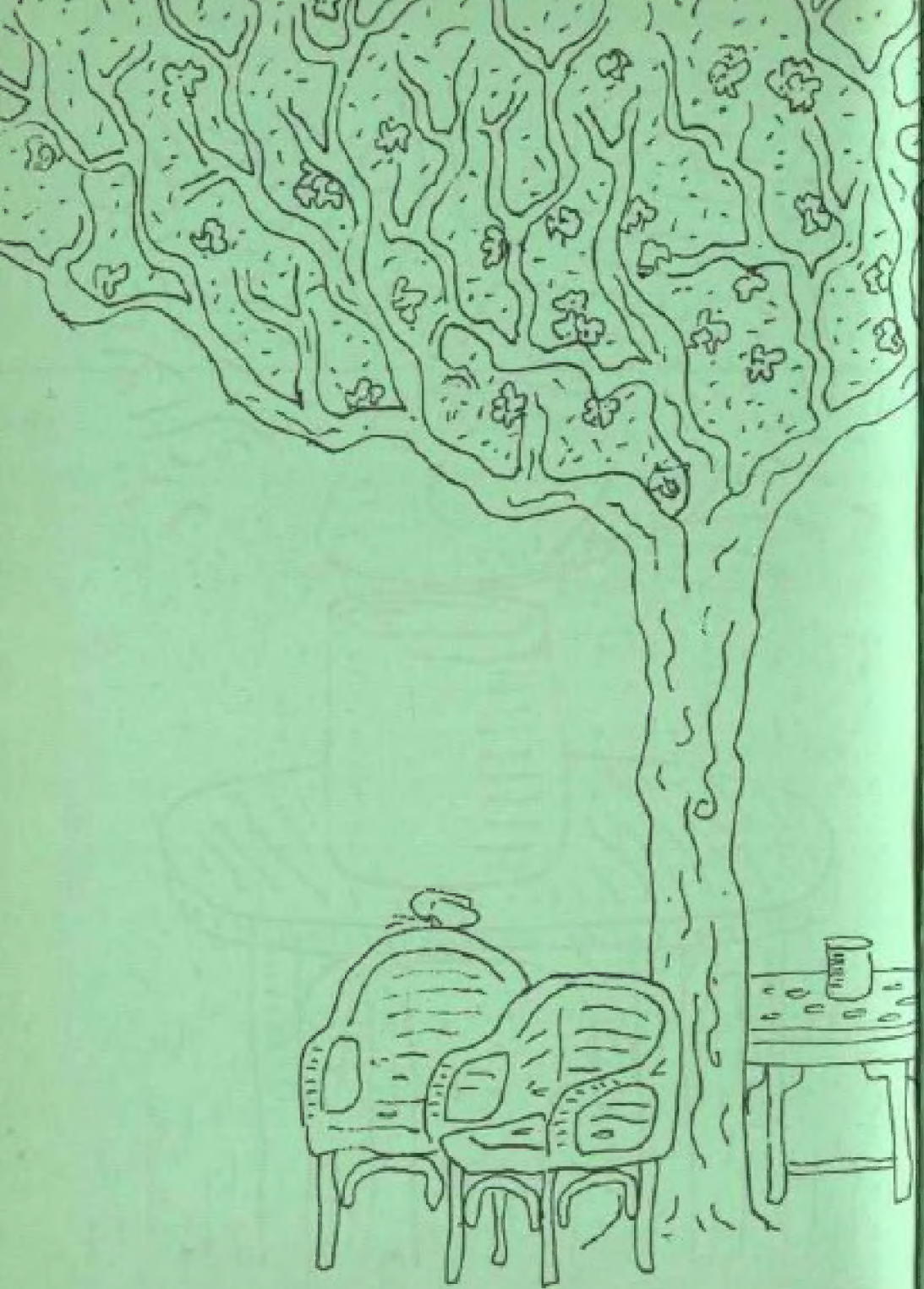
هذا هو آخر ما كتب محمد عفيفي ، قبل أن ينتقل إلى العالم الآخر .
ولا شك أن عالم محمد عفيفي الآخر سيكون يمثل بساطة وجمال وصفاء
وصدق عالمه الأول ، عالمه الأرضي .. بيته وحديقته اللذين عاش بينهما
حياته ، خاصة آخر أيامها ، بتأمل ما حوله بعين فنان وعين شاعر
وعين فيلسوف .

إن أجمل ما في هذا الكتاب هو تكرار الذات الفني - إذا جاز
التعبير - فعفيفي يكتب عن العالم من حوله ، وهو في وسطه ومحوره ،
ولكنك لا تشعر لحظة بوجوده هو ، أي الكاتب ، إنه يحول نفسه إلى
إطار أو نافذة سحرية متحركة ، يوجهها نحو تفاصيل وعناصر الحياة
العادية ، فترى من خلالها العادي وقد تحول إلى شيء غير عادي ، تحول
إلى عمل فني ، كل الأشياء إذا رأيتها من خلال نافذة محمد عفيفي
السحرية ، كل الأشياء ، تكتسي شفافية غريبة تبوح لك وتُظهر بواطنها

وأسرارها ، أسرارها الجميلة .. أو سر جمالها . كل الأشياء وأسطها
يقع الضوء على مقاعد الحديقة ، أزهار الياسمين على بساط الغرفة ،
الوجوه والأشخاص في زهرات البانسيه ، القطط ، الكلاب ،
الحشرات .. العصافير .. الحياة .. المرض .. الموت .. كلها تتحول
إلى تماثيل بللورية شفافة ، يرفرف حولها فراش أبيض يلمسها بأجنحة
رقيقة من أسلوب محمد عفيفي ، الذي ينتقل بيسر وسلاسة وراحة تامة ،
بين العلم ، أو التفسير العلمي لظواهر الحياة وبين التأمل الفلسفي الفني
الساخر لتلك الحياة .

هل كانت هذه السطور هي دعاء محمد عفيفي الأخير ، هل
كانت دعاء وتسييح فنان يتقرب من ربه عن طريق التأمل الفني في
بديع خلقه هو .. الفنان الأعظم ؟

حلمي التوي



« على الكرسي القش الأصفر العتيق »

« ملاحظات في حديقة مشمسة على نماذج من الحيوان
والطير والشجر وبعض بني البشر ، لرجل عجوز يجلس
على الكرسي المذكور » .

محمد عفيفي

الفصل الأول

« فراشة جديدة كل يوم - ليمونة على دماغ القطعة السوداء - التقلية
ومغزاها - ماذا تقول العصافير - الضفدع الحائر - الشاي بنكهة من
نور الضحى » .



الفراشة البيضاء

الفراشة البيضاء ومضت فوق السور النبائي المرتفع كعادتها كل صباح ، وكعادتي أسفت لأنني يجب أن استبعد ذلك الشعور اللطيف بأنها هي نفس الفراشة التي تزور حديقتي كل يوم . لكن أحداً لا يستطيع أن يصادر حريقي في الافتراض الذي يريخني ، وتلك الفراشة الواحدة الفرضية قد أسميتها بيني وبين نفسي فروشة . ورفرفت فروشة هنا وهناك باحثة عن رزقها حتى جذبتها وليمة الألوان في حوض « البانسية » فألقت بنفسها فيها ، وعلى إحدى الزهور حطت مبسوفة الجناحين تنهل في حب من عذب الرحيق . وكان بجانبها زهرة رسم عليها بالأصفر والبيج وجه قرد صغير ضاحك ، وأخرى عليها طفل بنفسجي مذعور ، مكان لطيف لفراشة لطيفة بيضاء .

بجانبي حيث جلست على الكرسي القش الأصفر العتيق ، مستظلاً بصديقتي العزيزة تمارا ، التي من خلال أغصانها تتساقط عشرات من دوائر الضوء الصغيرة البيضاء ، وتفرش حولي مثل قروش فضية متراقصة . على النجيلة الخضراء التي تكسو الأرض حولي ، وعلى الترابيزة المستديرة المصنوعة من الخشب الخشن الأبيض - الأبيض الغامق إذا جاز التعبير . وفوقها كوب الشاي الكبير الخزف البني ، الذي انكسرت أذنه من زمان فحمدت الله على الخلاص منها ، وقرش فضي سقط على سطح الشاي

متلاعياً كأنه عين تغمر ، سيكون لطيفاً أن أدوق شاي بنكهة من نور الضحى .

هنا أحب الجلوس في هذا الجو المعتدل من أوائل الخريف ، حيث أحظى من الشمس بدفئتها دون لسعتها . فليس من أجل عطر تمارا أجلس تحتها ، لأنها قلما تجود بعطرها إلا قبيل الغروب والنهار يسلم المفاتيح للمساء . وأمنية دهشت عندما أخبرتها للمرة الأولى منذ سنوات أنني قد أسميت هذه الشجرة تمارا ، ولكنها لم تلبث أن قالت معترفة :

- طب والنبى لايق عليها !

فقلت لها شارحاً سر تلك التسمية :

- شجرة تمرحنة ح اقول لها يا ايه الا يا تمارا ؟

- وانت لازم تناديه باسمها ؟

- طبعاً ، عشان تعرف اني باكلها هي .

وكانت أمينة تعرف أنني أحب أن أكلم الأشجار (غير متوقع منها أن ترد علي طبعاً) فاكثفت على سبيل التعليق بأن تصعبت وقالت مازحة :

- ربنا يكملك بعقلك !

وأما عن زهرة فهي تعرف كيف بدأ اسمها . في أول الأمر بترهيرة نسبة إلى ليمونها ، ثم أخذت الباء تذوب يوماً بعد يوم في أكواب العصير حتى أصبحت زهرة .

وأغصان زهرة تتلامس ، وفي بعض المواضع تتشابك ، مع أغصان جارتها تمارا في محبة وود أكيد . وكان طبعياً أن تبدو مزهورة بما حملت من الحبات الناضجة الصفراء ، المنتفخة بالعصير كما يجب أن يكون البترهير . وحكيم قديم زار مصر ورأى ليمونها فقال « عجبت لهؤلاء

القوم كيف يمرضون وعندهم الليمون ! ! ولا شك أنه كان صادق الحدس في إدراكه لفضل الليمون من قبل أن يعرف الناس شيئاً عن الفيتامينات ، وما أظنه كان محتاجاً في استكشافه لقيمة الليمون إلى أكثر من أن يرفع إلى أنفه ليمونة صفراء كهذه وبشمها ، ما لم يكن قد حكها بظفره ومسح لحيته بما نضح على قشرتها من عصيرها الشافي ، فصار يملأ لنفسه كل يوم كوباً من العصير ويشربه على الريق ليزداد حكمة .

وعلى غصن من زهرة حط عصفوران ، يتصايحان وفي بعض شئونهما يتجادلان . ولقد كنت زمان أظنهما يتغازلان كما زعم الشاعر ويتناجيان بأعذب الألحان ، حتى علمني طول الجلوس في الحديقة أنهما في حقيقة الأمر ، وفي معظم الأحيان ، يتخانقان ويتبادلان من الشتائم أوسخ ما يعرفان . ولقد حاولت أن أتخيل نوع الشتائم التي تتبادلها العصافير فعمّرت عن ذلك ، وطلعت مليئة بالبذاءات البشرية التي تجعلني أنزه عنها ذلك الجنس اللطيف من الكائنات المجنحة .

وما لبث العصفوران أن طارا بعد أن هزأ الغصن بقوة فأسقطا منه ليمونة كبيرة صفراء ، وكان سقوطها على دماغ القطعة السوداء على بيضاء . ولعل هذا هو السبب في أنني أفضل الجلوس تحت تمارا عن تحت زهرة ، فما أظني أكون سعيداً بليمونة كبيرة في كوب الشاي الخرف البني . وكانت القطعة قبل ذلك نائمة على النجيلة الخضراء تستمتع مثلي بدفء القروش القضيبة المتراقصة ، ثم تنبهرت على صوت العصفورين فرفعت رأسها وصوبت نحوهما عينين خضراوين ناعستين ، واختلجت شفتاها مع شاربها كما يحدث دائماً في مثل هذا الظرف ، مع نونة خافتة مرتعشة هي التجسيد المرير لشوقها اليائس إلى هذا البروتين الطائر .

وناظرا إلى هذين الفكين المرتعدين كدت أسمعها تقول :

- يا رب ! خلقت لنا العصافير لكي نأكلها ونسبح بحمدك ، فلماذا

يا رب - لماذا ! - خلقت لها أجنحة تهرب بها منا ؟ ؟

وكانت تلك هي اللحظة التي سقطت فيها الليمونة الصفراء على دماغها السوداء ، وربما كان ذلك عقوبة لها على اعتراضها على إرادة الخالق . فهبت مذعورة تنلفت حولها مستكشفة سر ما حدث ، ومدى لحظة ركزت بصرها علي أنا - بصفتي الشخص الوحيد الموجود - بنظرة اتهام خضراء . ثم انها ما لبثت أن نسيت كل شيء عن الأمر فباعدت بين فكها كالكهف وتثاءبت . وطبعاً كان اسمها في البداية بوسي مثل كل القطط المصرية من الطبقة الوسطى ، لكن صاحبها حمادة شرع فجأة يناديها باسم موني ، ويوماً بعد يوم صارت تستجيب لهذا الأسم الجديد . وبسؤال عن السبب في هذا التغيير قال بتلك اللثغة التي لازمته إلى ما بعد سن الخامسة !

- هي قالت لي ان اسمها كده !

والحكاية كلها بالطبع أنه قد اختار لها اسماً خالياً من حرف السين لكي يسهل عليه نطقه .

مدت موني رأسها تتشمم الهواء ، إذ سبقني كالمعتاد إلى التقاط تلك الرائحة الشهية التي بدأت تعطر جو الحديقة ، رائحة ثقيلة تصنع في المطبخ . والثقيلة تصحبها الملوخية ، والملوخية قلما تتواجد بغير فراخ أو أرانب في أضعف الإيمان ، سلسلة من الاستنتاجات لا أزعج أنها قد مرت بهذا الوضوح في تلك الدماغ السوداء ، وان كنت لا أستبعد ذلك من قطعة عمرها عشرون عاماً بعمرنا نحن البشر ، أي أكثر من مائة عام بما يناسب عمر القطط .

الرائحة وفدت من باب الشرقة المفتوح ، بعد أن مرت بالصالة آتية من الطريقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ ، حيث أتخيل أمينة واقفة في فستانها الرمادي وسط سحابة كثيفة بيضاء من بخار الحلال . وإزاء تلك الرائحة نسيت موئي كل شيء عن الشمس وأسرعت متواثبة نحو الشرقة في نشاط مفاجئ .

وصوت خرقشة تحت السور النبائي عرفت مصدره من قبل أن أنظر إليه ، وقبل أن أواجه العينين السوداوين الجاحظتين للكائن الذي وقف يرمقني في تساؤل ، الضفدع الكبير - أو الضفدعة الذي يأتي بين حين وآخر والذي صححت لنفسني - على عكس الحال مع الفراشة البيضاء - بأن افترض أنه ضفدع بذاته لا يتغير .

- آووو !

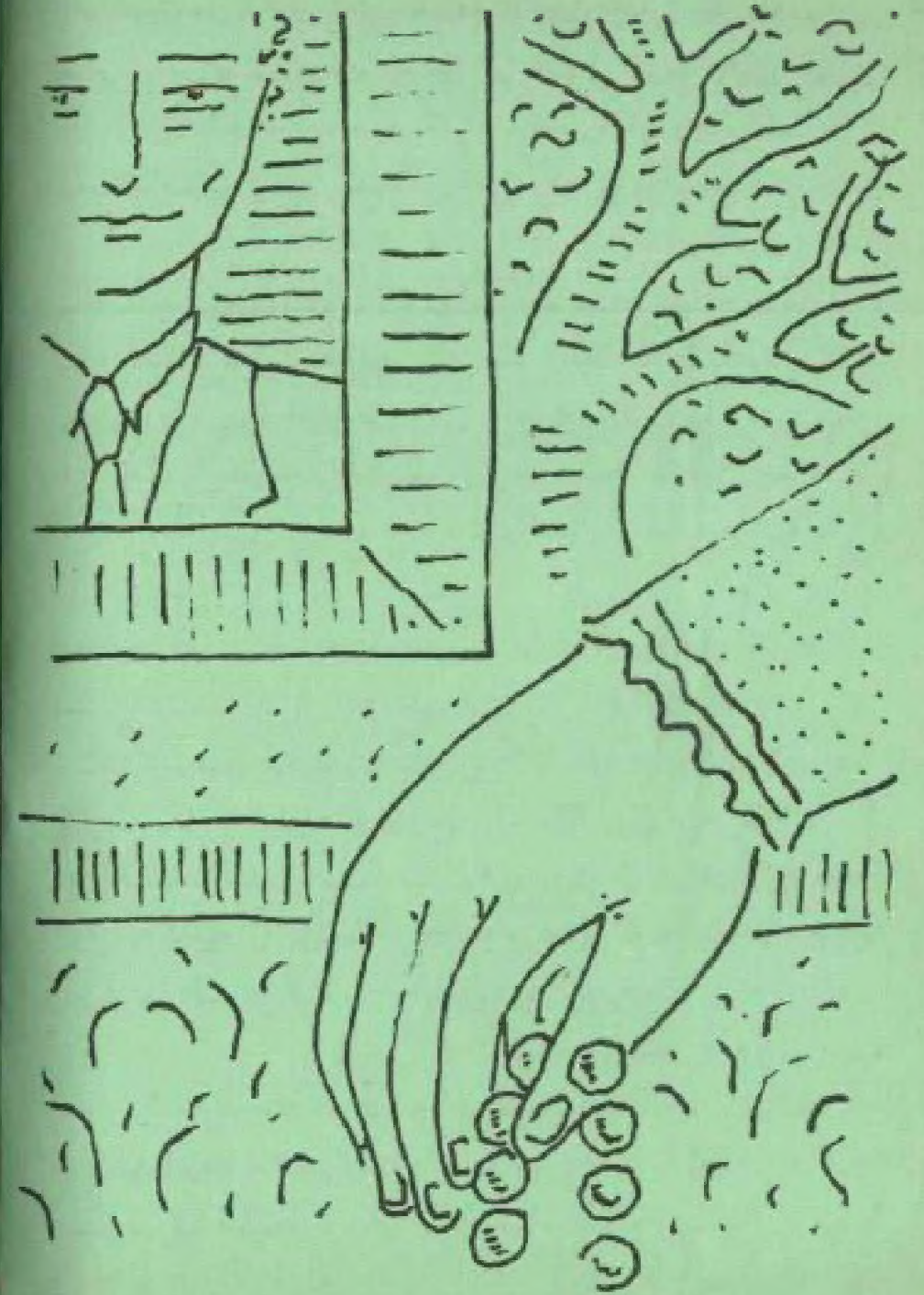
كلمة واحدة موجزة يقولها لي كلما مر من هنا ، ثم يقفز قفزة تدخل به من خلال السور إلى الشونة وراء السور النبائي . ضفدوع كما أسميته إذا كان ذكراً ، فإذا كان أنثى فعليه أن يضيف لنفسه تاء التأنيث . واندفع من حوض البانسيه جسم صغير أبيض ، للفراشة التي شبت من الرحيق فطارت . ولطالما تساءلت هل تشبع الفراشة بهذه السرعة لأن بطنها صغير مثلها ، أم أنها - لخبث في طبعها - ترفض أن تنال وجبتها الكاملة من زهرة واحدة ، مفضلة أن تملأ بطنها من عشرين زهرة في عشرين حذيقة ؟ ؟

وتذكرت كوب الشاي فمددت نحوه بدأ تعودت على منظر عروقها النافرة ، محاولاً أن أتجاهل ما بدأ يشوبها من رعدة خفيفة في العهد الأخير . ولذلك رحبت بانكسار اذن الكوب الخزف البني ، لكي أقبض عليه بجماع يدي بدلاً من أن أمسكه باصبعين أو ثلاث فترداد

الرعدة وضوحاً . وكان الشاي لذيقاً حقاً بتلك النكهة الإضافية من نور الضحى ، حيث حسوت منه على مهل على الكرسي القش الأصفر العتيق .

الفصل الثاني

« هل يحتاج جمعة إلى حجاب ؟ - طائر مهاجر في مطابخ لندن -
ساقية صدقة اسمها شحانة - فيدو أو صوت سيده ، الكلب النجس
المنبوذ »



فخطر لي أن أقول لها :

- إذا كنتي اتقي ست يبقى هو راجل !

لكنني لم أفعل طبعاً ، فليس كل ما يخطر للمرء يقوله لاسميا إذا كان صحيحاً .

مناقلة سارت أمينة في الشرفة ، متمايلة لكي توزع على ساقها أوجاع الروماتزم بالعدل . نزلت السلام الأربع المؤدية إلى الحديقة وعبرت الممشى الرملي الصغير ، قتلت بالضرورة ما قتلت من طابور النمل الشغال هناك طول الوقت .

أخذ في الامتلاء جسم أمينة حتى لتوشك أن تصبح سيدة بديعة ، غزال زمان الرشيق الأسمر ، الذي في أعناق عينونه العلية ترقص لمسة للذئبة من خضرة متهربة . أمونة الحلوة ، أموتي ، وكم من الأسماء دللتها بها أيام زواجنا الأولى .

على الكرسي القش الأخضر أراحت جسمها قائلة :

- الروماتيزم النهار ده عامل عميله معايا .

نبرة خشنة طرأت على صوتها بعد أن أكملت الستين فلم تحاول أن تداريها . سرحت حيناً ثم فتحت موضوعها المفضل قائلة :

- حمادة اتأخر المرة دي في الجوابات .

- هي الناس في أمريكا فاضية تكتب جوابات ؟

- يكتب ولو سطرين يطعني عليه . انت قلت لي البلد اللي هو فيها دي اسمها أيه ؟

لا يمكنها أبداً أن تحفظ كلمة ماساشوسيتس .

- جتهم اليلاف أساميهم ! ده اسم حد بسميه ليلد ؟ وهو راخر يستاهل اللي يجري له ! قاعد معانا واكل شارب معزز مكرم ، لازم يشحطط

قروش الضوء الراقصة تحت تمارا ما زالت كافية لحصولي على حاجتي من الدفاء ، هنا حيث أجلس على الكرسي القش العتيق الأصفر . وأمامي تحت زهرة كرسي آخر أخضر من نفس الطقم العتيق ، هو المفضل عند أمينة حين تنزل إلى الحديقة ، لأن لونه الأخضر كما تقول من لون الجنة .

في الشرفة برزت أمينة من داخل البيت في فستانها الرمادي ، تتدلى من يدها سبعة طويلة ذات حبات صغيرة سوداء . ما كانت لتقع بسبعة أقل من مائة حبة ، أما السبعة ذات الثلاثين حبة فهي تركها للهواة الذين لم يكتمل إيمانهم .

وكانت قبل ذلك لا تخلع الثوب الأسود حتى أقنعتها على مر الأيام بأن اللون الرمادي لا يقل بلاغة في التعبير عن الحزن وبأسلوب أوفر . وعلى رأسها طرحة الحجاب البيضاء لتخفي شعرها عن عيون الرجال ، مع أن شعرها يوشك أن يصبح أكثر من الطرحة بياضاً !

فقلت لها ذات يوم منهكماً :

- هي الجنينة فيها رجالة يا أمينة؟

فقلت بخيظ :

- هو جمعة موش راجل ؟

نفسه ف آخر الدنيا ؟ وما ريته بفايدة ، إلا لغاية النهاردة على فيض الكريم .

- اصبري عليه شوية ، بكرة بشم نفسه .

كان طبيعياً أن يتضاعف تعلقها بحمادة بعد أن حدث ما حدث ، وفي سبيل تثبيطه عن الهجرة استخدمت كافة الأساليب بما في ذلك المرض . لكنها كانت تضيق في قرية مقطوعة ، إذ قرر الولد أن يهجر وأنهى الأمر . وقبل أن يقفز عبر الأطلسي غرباً كتب إليها من لندن يقول إنه يكسب عيشه مؤقتاً من غسل الصحون في المطاعم . فكانت أمينة تقع من طولها .

- يا ندامتي ! حمادة ابني يغسل الصحون ؟ ده عمره ما مد ايده في الحوض . ده كان يعمل القهوة وأنا اللي اغسل له الكنكة !

فطمأنتها إلى أنهم في تلك البلاد يستخدمون الآلة في غسل الصحون بدلاً من اليد البشرية ، فلا مناسبة لأن تتخيل ولدها وقد أمسك بليفة بريطانية وراح يدعك بها صحناً نجساً بما يحمل من آثار شحم الخنزير . فأراحها هذا الكلام نوعاً ، وإن ظلت فكرة غسل الصحون في ذاتها إهانة عظيمة لا تدري كيف قبلها على نفسه شاب محترم هو ولدها ويحمل بكالوريوس التجارة بدرجة جيد .

وصوت مبجوح نادانا من وراء السور الباقي ، صوت جمعة خفير الشونة الذي يتولى ري حديقتنا وكنسها .

- صباح الخير يا بيه ، صباح الخير يا حاجة . عندي النهاردة جرجير حلو قوي !

- هات لنا حزمتين .

- حاضر يا حاجة .

- وفجبل كمان .

- حاضر يا بيه .

- وشوف لنا كام بيضة عندك .

وكانما سمعنا الدجاجة المختصة فشرعت تردد نقيق الفرخة التي تريد أن تبيض . ومن آخر الشونة يتراعى إلينا ذلك الأنين الأبدي الخافت ، بكاء شحانة ابن جمعة ، أشبه شيء بصريير ساقية عتيقة صدئة .

نهضت أمينة واختفت وراء البيت ، وعند باب الحديقة الحديدي الواطي ظهر جمعة بعد حين ، تائهاً بجسمه المترهل في جلبابه الأبيض القصفاض الذي يتسع لاثني معه . وشارب أسود كثيف يتصدر وجهه الأسمر الكروي ، أفرغني أول الأمر حتى أدركت أنه شيء من النوع الذي يركبونه الممثلين في الأدوار الهزلية . وبجانبه يسير كلبه المضحك بظهره البني الغامق منجرد الشعر ويطنه الصفراء الغامقة ، ويسميه مع ذلك فيدو تيمناً بكلاب الناس الطيبين .

دفع جمعة الباب ودخل وأراد فيدو أن يتبعه فتمعه .

- ارجع يا فيدو ارجع ما ترعش متا الحاجة !

لأن الكلب كان ممنوعاً من دخول حديقتنا بأمر أمينة ، لا لأنه قد أخطأ في حقاً بصورة ما وإنما لمجرد أنه كلب ، تلك التهمة التي تجعل منه - مثل كافة كلاب الدنيا - كائناً نجساً يجب علينا أن نبذنه وتتحاشاه ونزجره كلما رأناه .

فخطر لي مرة أن أسألها :

- وكان ربنا يخلق له ؟

فقلت بحزم :

- وكان يخلق العقربة له ؟

فلم أجادلها ، وحرمتنا من أن يكون لنا كلبنا الخاص الذي يحرمتنا من المخدوعين من اللصوص . ونبح الكلب احتجاجاً على منعه من الدخول ، وكان في صوته بحة مثل صوت جمعة ، فهل كان غريباً مني أن أسميه صوت سيده ؟ لكنه ظل في الخارج بالرغم من الباب المفتوح ، على الرصيف ارتدى ورفع ساقه ليضعض في بطنه الصفراء متصبداً ما يصادفه من حشرة القراد . مزيج عملي من النظافة والغذاء .
إني أحب جمعة لسبب غير واضح لي تماماً ، وفي الوقت نفسه أرثي له ، ويدعشني أنه يأخذ نفسه مأخذ الحلد فيعمل لكي يتزوج ويخلف ويجلس بالليل يشرب الجوزة ويشرع في إنجاب طفل جديد. وأشياء كثيرة تعلمت أن أحبها وأرثي لها ، حيث أجلس على الكرسي القمش العتيق الأصفر .

الفصل الثالث

٥ المخصراء بدون أن تكون خضراء - مجمع للعصافير وأسرة جمعة -
إسطوانة مشروخة تنأوه - لماذا تكلم جمعة عن البطة الجريحة بضمير
المذكر ١٩ .



لسة من النبي المحروق تمازج خضرتها الهادئة وتجعلها غير ذات لون
مؤكد . فهي أحياناً برتقالية على خضراء ، وهي أحياناً صفراء ، وهي
أحياناً طوبية متوهجة توشك أن تكون حمراء . وفي حبها للتفرد رفضت
أن يكون لها أوراق مثل سائر الشجر ، معتمدة في تنفسها على تلك
الفصينات الصغيرة التي تتدلى من أغصانها مثلما تتدلى الشراشيب من
كم فستان أخضر على بنت رشيقة مثلها .

لكن أمينة لا تحبها ولا تنكر ذلك .

- موش فاهمة إيه عاجبك فيها ، لا بتطرح ولا بتزهر ولا منها قابضة
ولا عابدة .

فهي في علاقتها بالنيات تؤمن بمذهب المنفعة ، ولذلك كان تفضيلها
للنخلة القائمة هناك في آخر الشونة ، الكالحة المائلة بزاوية حادة تجعل
حياتها مقاومة مستمرة للسقوط . لكنها تنمر وتطعم جمعة وأسرته ، من
السباطة اليتيمة الحمراء التي تطرحها كل صيف . وهذا إلى جانب
علاقاتها التاريخية العديدة بالأنبياء والقديسين .

فقلت لأمينة وأنا أشير إلى صديقتي :

- عارفة دي بقى اسمها إيه ؟

قالت متصاعدة :

- إيه يا سيدي ؟

- اسمها رينا .

فقلت ساخرة :

- اسمعني ؟

- شجرة كزورينا ، ح اقول لها يا إيه إلا يا رينا ؟ ؟

فضحكت أمينة ضحكة صغيرة ، وكانت تضحك كثيراً قبل

حتى قروش تمازا الدافئة لا تلزمني في هذا الصباح الذي يوشك
أن يكون صيفاً . فالشتاء لا يزال يتلكأ لسبب غير مفهوم ، وهي قطعاً
أكلة خاصة يجهزها لنا على مهله في مطبخه غير المبارك . فجلست في
الشفرة على الكرسي الفس الأحمر ، ثالث كراسي الطقم العتيق ،
وذلك بعد أن جمعت ما كان يعلوه كالمعتاد من زهور الياسمين .

بارك الله فيك يا حمادة أينما كنت ، إذ جذب إلى الداخل بعض
فروع من ياسمينه ، وبشيء من الخيوط والمسامير صنع لنا في الشرفة
مشروع خميلة ياسمين صغيرة مبهجة . وياسمينه الأم تواصل رحلتها
الأبدية الذئوب نحو سطح البيت ، عشرات من الزهور البيضاء تلمع
فوق خضرتها وترمقني بنظرات أميل إلى الظن بأنها متعاطفة .

وهنا في الشرفة أرى صديقتي الرابعة شبه كاملة ، وراء السور النباقي
الذي لا يحجب شيئاً منها سوى أسفل جذعها الطويل . فهي صديقتي
بدون أن تكون شجرتي ، ومتى كانت الملكية من شروط الصداقة ؟
هي ثابتة في الشونة التي نسبها هازلين بأرض عم جمعة ، إذ بتولى حراسة
ما فيها من أكياس الأسمنت وأسباخ الحديد المملوكة للمقاوم صاحب
الأرض .

طوبلة رشيقة مهتمة على الدوام ، خضراء بدون أن تكون خضراء .

أن يحدث ما حدثه ، وقالت :

- ربنا يكملك بعقلك !

وفي آخر الشونة بالقرب من النحلة يقوم ذلك البناء الحجري الأصفر ، وعشرات من الشقوق في جدرانه حولتها العصفير إلى عشرات من الأعشاش . هناك يخزنون أكياس الأسمنت وأسياخ الحديد وأسرة عم جمعة . ومن هناك ينبعث ذلك الأبن الصدى الذي لا يقطع نهراً أو ليلاً .

وعن أم شحاتة لا أعرف شيئاً الا صوتها البدائي الجلف الذي يطلع في الشونة كلما تشاحت مع زوجها جمعة . ومن حسن حظي أنني لا أفهم شيئاً مما تقول ، إذ تنهال الكلمات من فمها أشبه بأكداس الزلط حين تنسكب على الأرض دفعة واحدة من قلاب على ظهر لوري .

وقد كان في البداية يبكي مثلما يبكي سائر الأطفال ، صراخات متشنجة تنبجر حيناً ثم تهدأ عندما يزول سببها . ثم تبين أن هذا السبب لا يزول عند شحاتة أبداً ، ومع الجهد والتعب تحول البكاء إلى أنين خافت مستمر مثل خرقة اسطوانة مشروخة علفت إلى الأبد على كلمة آه . ربما كان الجوع على صدر تلك الأنثى العجفاء ، وربما كان المنصر أو الإسهال أو قرص الناموس . وهو صوت ألفته ولم يعد يزعجني ، ولربما افتقدته وأزعجني سكوته إذا سكث .

- ما توديه لدكتور يا جمعة ؟

هكذا اقترحت عليه يوماً فقال :

- هو دكتور واحد يا بيه ؟ دنا لفيت به مستشفيات البلد كلها . صلي ع النبي يا بيه .

وأشار نحو البيت الحجري المشقق وقال :

- كله م الولية دي ! بطنها بعيد عنك زقرة ، عمر ما نزل منها عيل سليم !

وعلمت أمينة من بائعة اللبن أنه قد مات الجمعة حتى اليوم طفلان ، ولذلك سمى هذا الأخير شحاتة عسى أن يخزي عنه عيون الحاسدين فيعيش .

- يا ست ! يا مودام ! يا حاجة !

صوت جمعة عند باب الحديقة الذي لا أراه من هنا ، وأجابه صوت أمينة من عند باب المطبخ .

- أدخل يا جمعة ، عاوز حاجة ؟

ولم أسمع رده عليها إذ قرر كلبه أن ينبج معه في نفس اللحظة . قالت أمينة :

- هاته أشوفه .

وقال جمعة .

- امشي يا فيدو ، امشي !

وصوت جدل بينهما عند باب المطبخ لم أميز منه شيئاً ، صوت جمعة المبحوح يحاول أن يرتفع . فيغلب عليه صوت أمينة ويكبسه . ثم سكنا ومرت دقيقة قبل أن يظهر أمامي في المشى الرملي ذلك الكائن الغريب .

هي بطة عادية سوداء مثل كل البط ما في ذلك شك ، ومع ذلك ساورني للفور إحساس قوي بأن فيها شيئاً غير طبيعي . واحتجت إلى لحظات قبل أن اكتشف طبيعة ذلك الشيء ، متثلة في ذلك السرسوب الطويل من الدم الأحمر القاني ، الذي يقطر من عنق البطة ويرسم تحتها على الرمل الأصفر خطاً طويلاً متعرجاً أحمر . بطة عندها نريف ، تفسير

غير معقول . وهي تسير خطوتين وتسقط من فرط ضلعها ، فتنهض
ثانياً متحاملة على نفسها ، غير مدركة أنها تخطو آخر خطواتها في
الحياة . ورأت على الأرض شيئاً أعجبها فالتقطته بمناقرها ورفعته إلى
أعلى لتبتلعه غارقاً في دماغها .

وظهر جمعة مقبلاً في المشى فسا كاد يرى البطة حتى صاح فرحاً :
- لقيه يا ست !

فعجبت لماذا يتكلم عن البطة بضمير المذكر حتى قال :

- ده ذكر بط كت الست موصياني عليه !
وانقض عليه فالتقطه ممسكاً إياه من ساقيه ورأسه يتلنى نحو الأرض ،
والرسوب الأحمر قد تحول إلى سيل غزير من الدماء .

قلت له مستظراً :

- هي مدبوحة ؟

فقال مصححاً :

- أيوه يا بيه ، مدبوح .

- أنت اللي دابحه ؟

- أمال يا بيه .

- طب مش تدبحه زي الناس ؟ ده لف الجنية كلها على رجله !

فقال متباهياً :

- أحسن يا بيه ، عشان دمه يتصفى كويس !

وابتعد بالقتيل وهو يقول :

- ألف هنا وشفا يا بيه !

فتمنيت من قلبي أن أخلع الحذاء وأقصد إليه فأضربه ، لكنها

بالطبع ظلت مجرد أمينة . فما ذنب جمعة فيما فعل ، وهل أتى شيئاً غير
ما رأى قومه يفعلون ؟

أما عني أنا فلا أظن أنني سأضع في فمي قطعة واحدة من هذا الذكر
التمس ، اللهم الا إذا اعترتني حالة مؤسفة من ضعف الذاكرة ، وما
أكثر ما تعتريني تلك الحالات في العهد الأخير .

ودخلت أمينة إلى الشرفة وهي تحفف يدها بقوطة ونقول في انتصار :

- ذكر بط يسوي اثنين جنيه ، خدته منه بجنيه بس !

فتشكرت في الأمر لحظة ثم قلت :

- أحسن ، عشان دمه يتصفى كويس !

فقال أمينة غير فاهمة :

- يعني إيه ؟

فقلت في ابجاز حاسم :

- نكتة غير موفقة .

الفصل الرابع

« هل يتنافى الحزن مع الزهور ؟ - نوع خاص من الحب - قضيحة
بين البساتين - لست أحسن من الفراشة البيضاء - وفرح الولد المفقود » .



فضيحة في عالم الحقائق

مباهج الحياة الصغيرة ما هو الا رفض خفي لإرادة الله واعتراض صامت على مشيئته .

- وعلى كل حال اعرضي الحكاية على دار الأفتا .

الشيخة مفيدة صاحبة الدرس الديني الأسبوعي الذي تحضره أمينة منذ سنوات ، بارك الله فيها من شيخة متفتحة العقل واسعة الأفق ، وافقتني تماماً على رأيي في حزن أمينة الأبدي ، وإن كانت قد خالفتني قبل ذلك في مسألة الكلب صوته سيده فكبت عليه التجاسة الأبدية . ابتسامة جمعة وصلت إلى أذنيه حين صرحت له بأن يزرع الحديقة ، مشروطاً عليه أن يفعل ذلك في أضيق حدود ممكنة . وكان من المتع أن أرقب جمعة وهو يعمل في الحديقة ، الأرض يعزقها بالفأس ليكتشف للشمس أحشاءها السوداء الظامئة للضوء . أو بالشقوف يداعبها في رفق كأنه يخشى أن يجرحها ، ويده التي تغوص في التربة الميتلة السوداء كأنها تغوص في عجينة سقيت ليناً وعسلاً .

إنه يحب الأرض من قلب فلاح أصيل سخطه الزمن خفيفاً لشكاير الأسمت . أنا شخصياً قد أمشي على الأرض عمراً كاملاً دون أن أحبها بهذه الصورة ، وقد أبني عليها قصراً أو هرمًا أو أحقر لنفسي فيها قبراً ، وشيء من ذلك لن يجعلني أحبها ذلك النوع من الحب .

وكانت بالطبع فضيحة بجلاجل في دنيا فلاحة البساتين ، تلك الحديقة التي زرعها جمعة بمغاييس أولئك الذين يستعملون كلمات مثل التبوليب والجلاذبولس وغيرها من الزهور ذات الأصل الكريم . حوض من زهور البانسيه ذات المائة لون ، حيث يقف القرد الوقح بجانب الأرنب المدعور ، بجانب البنت الخارجية لتوها من عند الكوافير ، وغير ذلك من الأشكال الجديدة التي يكتشفها الإنسان كل يوم إذا

- ما تزرع الجنة دي يا بيه بدل ما هي قرعة كدة ؟

هكذا قال لي جمعة يوماً وهو حديث عهد بالعمل في حديقتنا ، قلت له متهرباً :

- ما هي مزرعة آهه .

- ده سجر يا بيه . أنا قصدي تزرعها ورد وزهورات وحاجات فرايجي كده ، لجل ما تضحك كده وتبقى حلوة .

لم يخطر له أن هذا بالذات هو السر وراء تلك الحديقة العابسة ، أن أمينة لا تريد لها أن تضحك أو تكون حلوة ، وكيف يجوز لها أن تفعل بعد أن حدث ما حدث ؟

قلت لجمعة مداعباً :

- ما تزرع الزهورات ذي عندك أنت ؟

- احنا بتوع زهورات يا بيه ؟ كفاية علينا حبة القمل والجرجير أجيب الفاس وآجي بكرة ؟

- لا يا جمعة ، قدام شوية .

وغامرت بعرض الفكرة على أمينة في إحدى لحظاتها الصافية ، مؤكداً لها أن هذا الإصرار على الحزن وعلى تحريم ما أحل الله من

كان من هواة ذلك . وحوض آخر يحوي تشكيلة فائقة الألوان من درجات الأحمر ، أشبه شيء بفساتين البنات الذاهبات إلى حديقة الحيوان صباح يوم العيد .

غير أن هذا لم يكن ليزعجني ، وكيف يزعج رجلاً يعتبر نفسه من غلاة المؤمنين بالاشتراكية النباتية ؟ إن كل الزهور جميلة في نظري طالما أدخلت البهجة على نفسي ، أما الأصل الكريم فلتتركه لمن يحتاج إليه . وكيف لا أحب هذا القرد وهذا الأرنب ، والرجل الصيني الأصفر ذا الشارب الأسود الطويل الذي اكتشفت وجوده منذ أيام ؟ إن الفراشة الصغيرة البيضاء تحب هذه الزهور وتهاقت عليها ، فن أنا حتى أدعي أنني أفهم في الزهور أكثر من الفراشة الصغيرة البيضاء ؟ قال لي جمعة وهو يشير مزهواً إلى ما صنعت يداه :

- شايف يا بيه ؟ بالذمة موش بقت شربات ؟

- بأنفاسك يا جمعة !

- ازدع لك حوض بقى دايرن داير ؟

- اسأل الست .

وبعد أيام رأيته عاكفاً على عزق الأرض حول محيط النجيلة الخضراء . وقالت أمية متحاشية أن تنظر إليّ :

- أقول لك حاجة ولا تضحكش ؟

- واضحك لي ؟

- أنت موش عارف نفسك ؟

- موش ح اضحك .

فقال لي خجبل :

- محمد جاني في الحلم وقال لي انه فرحان بزرع الجينة .

فددت يدي لكي أربت في حنان على ركبتيها العجوز ، هنا حيث جلست أمامي على الكرسي القش الأخضر الذي بلون الجنة .

وقلت لها مخلصاً :

- ربنا يفرحكو دائماً .

وضغطت يرفق على ركبتيها فقالت متوجعة بشبهة دلج قديم :

- أي ، الروماتزم !

الفصل الخامس

« بردان وراء الزجاج المغلق - ربة السحر والأوبك - لماذا يتخاصم
هدهد وعصفور؟ - هل هو عصفور فاسق؟ فضيحة الطائر المبروك -
ربة السحر تنتصر » .



إذا جاء الشتاء فليس الربيع يبعيد ، كلمة فارغة قالها الشاعر الإنجليزي البردان ليصبر نفسه على بلواه ، إذ هو أجدر الناس بأن يعرف أنه إذا جاء الشتاء فقد جاء ، وأن دونه والربيع شهوراً طويلة من الهم البارد والعذاب المثلج .

ولكم فرحت عندما رأيتة يؤجل وصوله بتلك الصورة ، بل وتخلت في لحظة جنون انه ربما يكون قد ألغى حضوره أصلاً ، متأثراً بدعوة حارة من قلبي الطاهر ! لكن الشتاء هو الشتاء ، كلمة باردة يجب أن نسمعها من الزمن كلما حان وقتها المحتوم .

إذ فتحت باب الشرفة ذات صباح فكأنني فتحت عن نالاجة كونية كبرى تهدد بالتجمد كل ما تلامسه . فأقفلته بسرعة وحييت الصديقات بالإشارة من وراء الزجاج ، ما من واحدة منهن ردت علي السلام . عابسات كلهن كالحبات يحملن هموم الدنيا بأسرها . وبنظرة إلى السماء عرفت السبب ، السماء الرمادية الكئيبة المنيرة بيوم شتوي مشوم . ومع ذلك فالهواء ساكن تماماً ، ما من ورقة واحدة تهتز في غصن واحد من آلاف الأغصان الجامدة في الأشجار حولي . الهدوء المثلج المريب ، كأنها لحظات العد التنازلي قبل انفجار المصيبة التي أعدتها لنا السماء . في بلاهة جلست موثي أمام المدفأة ، مندهشة لماذا لا تشعر بالدفء

كما هو مفروض ، ومتخيلة أنها لو أطالت الحلقة في المدفأة فقد تشعلها بقوة سحرها الخفي ، هي الإلهة بأسيت روح إيزيس ربة السحر . فهي لا تعرف أن الجاز قد أصبح وقوداً عزيزاً ، وأن العقلاء من الناس قد كفوا عن إشعال المدافئ صباحاً . وتلك بالطبع كلمة لا تعني عندها شيئاً على الإطلاق ، كلمة أوبك .

الفائزة الحقيقية اليوم هي أمينة ، بوقفها المستعة أمام شعلات البوتاجاز الساخنة وما فوقها من حلال تشكشك وتملأ الجو بخاراً دافئاً شهياً . وأنه ليكفي أن أستمع من بعيد إلى ذلك الصوت المطرب لكي امتلئ دفناً ، صوت الكبشة وهي تتخبط على جوانب حلة ساخنة .

فوقفت وراء الزجاج المغلق أفرك كفي وأنفخ فيهما وألعن أسلاف الشتاء . وشيء هبط فجأة أمامي على سور الشرفة ، شيء حي تغطيه ألوان مزركشة بدرجات من البني والبيج الغامق . على رأسه تاج فخور أحمر ، وأمامه على سبيل المتقار سيف طويل مدبب . هدهد جميل علموني منذ صباي أن أحبه وأنفامل به وأتمنى شيئاً من البركات التي تنثر من جناحيه حين يطير .

ففرحت به إذ اختص شرقي بشرف الهبوط فيها ، وعتبت عليه حين ببط جناحيه بسرعة وطار . عبر السور النباتي طار واجتاز الشونة كلها ، حتى وصل إلى البيت الحجري المشقق فحط هناك على سطحه فوق جمعة وأسرته والعصافير .

مدى لحظة شغلت عنه بالتطلع إلى السماء التي بدأت تكتسب ذلك اللون الأسود القبيح ، ثم ردتني إليه تلك الضجة التي انبعثت فجأة من ناحيته ، حيث دوامة كبيرة من العصافير تحلق فوق البناء الحجري في دوائر محسومة وهي تصرخ كلها في وقت واحد . وفي مركز تلك

الدوامة رأيت جسماً مزركشاً هو الهدهد ، وكان قد انتقل من سطح البيت الحجري إلى جداره المشقق حيث تعلق بمخالبه بأحد شقوق العصافير وهو يضرب بجناحيه ضربات سريعة لكي يتفادى السقوط ، ومتقاربه الطويل المديب قد غاص في أعماق الشق وراح ينشبه بهدف واضح لا ليس فيه هو أن يدمر ذلك العش تدميراً .

لماذا اختار هذا العش بالذات لا أدري ، ولماذا تقع العداوة بين هدهد وعصفور لا أدري ، فليس بيدي سوى أن أقف عاجزاً أتفرج على ذلك المنظر المأساوي . أشياء كثيرة يخرجها الهدهد من العش وينثرها حوله في الهواء ، ميزت فيها ريشاً للطيور وأوراقاً للشجر وأغصاناً صغيرة . وفي دماغه المحمومة تخيلت داخل العش مجموعة من البيض لم تفقس بعد ، أو أمرة من صغار العصافير ممدودة الأعناق متفرجة المناقير تنتظر ما سوف تدسه فيها أمها حين تعود .

كان واضحاً من حماسة الهدهد أنه يجد في عمله متعة كبيرة ، غامضة الا على جنس الهداهد . أما أنا فسأظل إلى الأبد جاهلاً إن كان هذا الهدهد قد قرر - في نوبة بشرية طارئة - أن يدمر ذلك العش لمجرد متعة التدمير ، أم أنه يتناول وجبة الإفطار العادية مثلما يفعل كل يوم وأنا لا أدري .

وأخيراً تعب الهدهد أو شبع أو زهق أو لا أدري ماذا ، فضرب بجناحيه ضربة رفعته فوق سطح البناء الحجري . هناك وقف يتلفت حوله في خيلاء ، تاجه يرقص فوق رأسه في زهو الظافرين ، وسيفه ممدود أمامه يقول هل من مبارز ؟ والعصافير ما زالت في دوامتها المجنونة حوله ، خائفة من أن يكون الوحش في فترة من الراحة قبل أن يتقض على عش جديد .

وفجأة قصفت الرعد بشدة ، مرة ثم مرتين ثم ثلاث مرات ، وسيف لمع في السماء واخترق السحب الكثيفة السوداء ، فانفتحت السماء عن الدش الكوفي المرتقب الذي راح يغرق كل شيء . رينا وزهيرة وتمازوا والكرسي القش الأصفر العتيق ، والآخر الأخضر الذي بلون الجنة . والفردوس الفساحكة والأطفال المذعورة وفساتين البنات الحمراء والبمبي ، والحمد لله أن الفراشة البيضاء كانت أعقل من أن تخرج في مثل هذا الجو .

وعن السطح الحجري طار الهدهد مذعوراً تتناثر البركات من جناحيه مبتلة نوعاً . والعصافير عادت مسرعة إلى أعشاشها ، أسفت لأنه ليس لها أبواب لتحتوي وراءها من شرور الحياة .

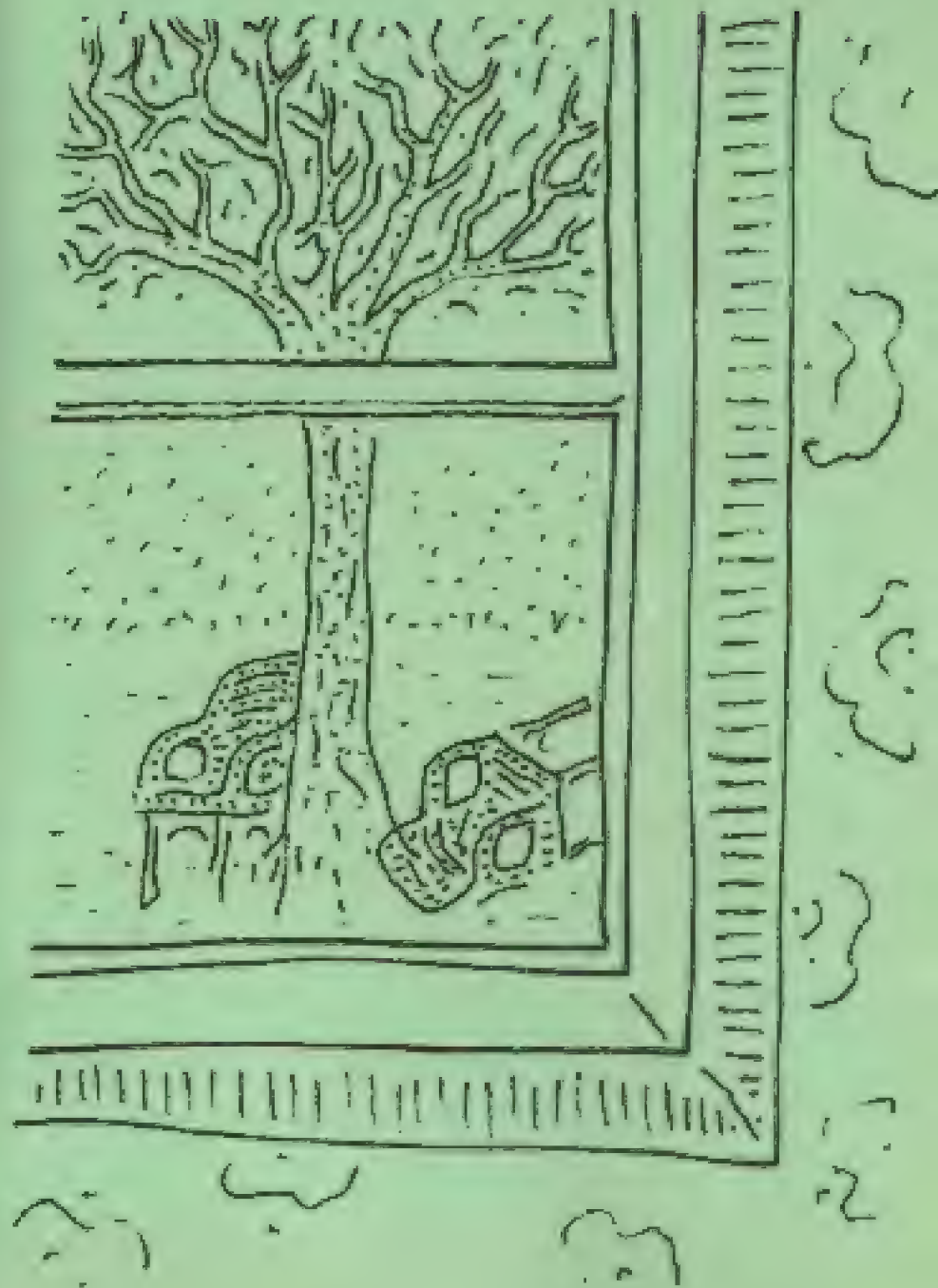
فياليت السماء بكرت قليلاً بهذا المطر ، إذن لربما أمكنها أن تنفذ ذلك العش التعس من التدمير . ومع ذلك من يدري ، أليس من الممكن أن يكون صاحب ذلك العش عصفوراً فاسقاً منحلاً يستحق ما حل به من العقاب ليكون عبرة لمن يعتبر من بني عصفور ؟

وأدركت بعد فوات الأوان كيف فاني أن أنادي أمية لتشهد فضيحة ذلك الهدهد السفاح ، لعلمي بأنها سوف تكذبني عندما تسمع القصة مني . ستقول أن جريمة كهذه لا يمكن أن يرتكبها ذلك الطائر المبروك صديق سيدنا سليمان ، وأنني أنا الذي بدأت أتوهم أشياء لا حقيقة لها من طول معاشرتي للشجر والحيوان على الكرسي الأصفر العتيق .

وسيل من المظر بدأ يضرب الزجاج بشدة حتى أوشك أن يحجب الرؤية تماماً ، فكرهت المنظر كله وابتعدت نحو المدفأة حيث ما زالت موني صابرة تنتظر . نعم إن العقلاء لا يوقدون المدافئ صباحاً ، لكن من هو ذلك اللوح الذي يريد أن يحترقني بالعافية في زمرة العقلاء ؟

الفصل السادس

على البساط النبتي العتيق - الثلج أفل الأبراب - وجاء من أقصى
سيناء - الولد والفحمة سوداء - حب وسط العاصفة .



العاصفة ترمجر في الخارج في الظلام المثلج ، غاضبة معرودة وسط الكائنات الخضراء الوديمة الصامدة . عواء للريح لا ينقطع ، وصرير أليم للأجزاء الطرية من جلتوع الشجر ، وفي ليلة كهذه قد تنكسر أية شجرة وتهوي دون أن يشعر بها أحد ، حتى الطويلة الرشيقة التي أشك في أنها ما زالت مهندمة . والدش الكوني ما برح مقترحاً منذ ساعات ، كأن أحداً قد فتحه ليستمح ونسي أن يقفله .

فجلست في الصالة على يسر المدفأة المشتعلة ، على القوي اللبني الذي كان ذات يوم أزرق ، وقدمي على ما تبقى من وبر في البساط النبيتي العتيق . وأمينة على مقعد مماثل عن يسار المدفأة . تتلاقى أصابعنا الباحثة عن الدفء أمام فتحاتها حيث العهد الساخن الذي فيه شاء لأصابعنا العجوز المتجمدة . له حق أن يكذبنا من نقول له أننا كنا في ذات يوم نستبط الدفء بالجهد الذاتية من جوف هذين الجسدين . وفجأة قفز إلى حجري جسم أسود على أبيض ، موتي التي كانت نائمة تحلم عند قدمي . حجري أحسن لأنه أقرب إلى فتحات المدفأة الساخنة ، والروب الصوف الرمادي يشع دفئاً إضافياً تحتها ، فتكورت هناك وبدأت تقرأ . - كرررررر !

قراءات غامضة تؤكد أمانة أنها ذات طابع ديني ، وهذا ليس

شيئاً مستغرباً من آلهة سابقة . فوضعت يدي على ظهرها أمسح بها على قطيفته السوداء ، ومددت أصبعاً أتحمس به ذبذبات القراءة أسفل عنقها الأبيض الذي تمدد في استمتاع .

- كرررررر !

ارتفع صوتها بالقراءة فسمعت أمانة وتصعبت .

- يا كبلي يا بني ! شوف إحنا قاعدين دقيانين إزاي ، وهو يا ضنايا

موش عارف يفتح الباب من كتر الثلج !

معلومة كتبها لها حسادة في رسالته الأخيرة ، وأشعر أن شيئاً هاماً

ينقصها لكي تدخل في الدماغ . واسترسلت أمانة وهي تلتقط بكرة من

صوف التريكو الأزرق :

- آديني ح اعمل له بلوفر حلو يدفيه !

- هي قلة بلوفرات في أمريكا ؟

- شغل ايد الأم يدفيه أكثر !

- حصة غ اليتامي اللي زينا !

وفجأة سطعت الفكرة في دماغي فقلت لها :

- عمرك شفتي باب يفتح ليرة ؟

فقلت غير قاهرة !

- يعني أية ؟

- يعني أما يتيجي تفتحي باب ، بشديه لجوة ولأ ترقيه ليرة ؟

فشكرت لحظة ثم قالت :

- باشده لجوة !

فقلت لها في انتصار وأنا أطرق بأصبعين :

- يبقى لازم الثلج في أمريكا دخل جوة البيوت !

فيبدو أنها كانت قد فكرت في الأمر بمفردها ولحسابها الخاص .
بدليل أنها قالت بسرعة شديدة .

- لازم أبوابهم كده !

- تفتح لبرة ؟

- آه ، اللي بسمي بلده ماسا كوفتش يعمل أبوابها تفتح لبرة !

فأحببت منظر الغيظ الكاذب على وجهها القسحي الذي بدأت تغزوه التجاعيد ، ولمسة الخضرة القديمة ما زالت تتلاعب في عينيها وإن فقدت بريقها القديم . وما كان أحد ليلوم أمينة أو يطالبها بأن تظل هي أمينة القديمة بعد ذلك الذي حدث . فلو أنهم قالوا لها إنه قد استشهد لكان ذلك أرحم بها من تلك الكلمة الجافة المقتضبة الباردة : مفقود . قالوها وسكتوا : عملوا ما عليهم وانصرفوا . ما من أحد شرح لها كيف تحول ولدها الأكبر من موجود إلى مفقود ، كيف تاه وليس بين أولاد الحلال من يرشد إليه . فكانت أسابيع مريرة في المستشفى : وفي عالم غير عالمنا تعيش أمينة . فلعلها وجدت هناك ولدها التائه وخشيت أن تتركه فيتود منها ثانياً . في عالم وحدها عاشت أمينة أسبوعاً وراء أسبوع ، عالم طالما تاه زواؤه إلى الأبد في دروبه الملتوية الباردة . وجاء من أقصى سبيل رجل يجري ، فك ما تبقى من أضرار الجاكته الكاكي وارتعى قائلاً وهو يلهث :

- ماحنا نصنا مفقودين يا بيه ، حد غارف حد من حد ؟ دي القبلة من دول تتزل ع اللوري باللي فيه تخليهم فحمة سودة !

فحمة سوداء ولدي ، صورة أفرعتني لزمن طويل إلى درجة الاذلال ، والحمد لله أنها لم تصل إلى أذني أمينة في عالمها الآخر . لكنها كانت

أرحم عندي بكثير من صورة جثة ملقاة في العراء والوحوش تنهش لحمها في الوادي المقدس .

وعادت أمينة بعد زمن إلى عالمنا ، لكنها لم تكن - وما كانت يمكن أن تكون - نفس أمينة التي ذهبت . أشياء منها بقيت هناك ولم تعد ، وأشياء عادت بلون مختلف ، مثل شعرها الذي كان أسود فصار أبيض ، وشيئاً فشيئاً بدأت تتعلم الابتسام من جديد .

ومن فوق بكرة الصوف الزرقاء أتاني صوتها يقول :

- مش عارفة كان يجري لي أيه لو حمادة راخر جرى له حاجة .

سؤال سمعته منها أكثر من مرة بعد أن هاجر حمادة ، تطرحه بأخشن نبرة من نبرات صوتها . ولحسن الحظ أنني لم أكن مضطراً إلى الإجابة ، لأن السؤال كان على الدوام موجهاً منها إلى نفسها . من أعناقها تساهل ولا تنتظر أن تسمع الجواب ، وإذا كانت هي قد أجابت نفسها فلست أدري ماذا قالت .

من فوق خيوط التريكو تأملتني بحب ورثاء وهي لا تراني ، ثم ملت نحوها قائلاً : - أحبك يا أمونة .

فاختلست نحوي نظرة مستغربة ثم ابتسمت وقالت :

- حبتك العافية !

عواصف كثيرة هبت على حياتنا فقاومناها ، وحرائق كثيرة شبت فأطفأناها ، ثم حدث الذي حدث فجرف أمامه كل شيء .

كم يزعجني ذلك الصرير الأليم في جذوع الشجر أمام العاصفة المجنونة . ولبمون كثير لا بد أنه قد سقط قبل الأوان من غصون رهيرة . والأرض غمرت بها الأوحال حول الكرسي الأصفر العتيق ، وفي الأوحال

الفصل السابع

« الكرسي عاوز مسمار - وطلعت الشمس على إيزيس - موني
تسهم في بناء الهرم - الالهة التي سقطت - إنقاذ في آخر لحظة » .



سجن داخل البيت لمدة يومين ، من وراء الزجاج أرى تمارا وزهيرة
تقاومان العاصفة بنفس البطولة ، والنجيلة تحنهما مغطاة بأوراقهما السافطة ،
التي حولت الكرسي القش الأصفر إلى أخضر مثل صاحبه الآخر بلون
الجنة . فأترك باب الشرقة وأذهب لأنهمالك بجانب المدفأة على الكرسي
النبي الذي كان أزرق ، ورائحة المطبخ تغمر الصالة كثيفة مركزة تكاد
تصل بالإنسان إلى حد الشبح . وأحيانا تدخل أمية فتجلس صامدة
لتنشغل سطرأ في البلوفر الأزرق ، وأذنها مرهفة إلى المطبخ في انتظار
صوت لحظة تشكشك فتترك الخيوط وتقوم مسرعة .

فالحمد لله أنها غضبة قصيرة الأمد ، غضبة الشتاء المصري على
أبناء وادي النيل . مثل غضبة أب عصبي على أولاده ، صباح وعجبت
وشخط وتطر ، وصقعة هنا وبوتية هناك ، ثم لا يلبث الجو أن يروق
ويصفو ، وعلى الأرض الخضراء تسطع دافئة كعهدها شمس السلام .
هكذا وجدتني مرة أخرى حراً طليقاً في الحديقة ، أنظف الكرسي
الأصفر العتيق الذي غسلته المياه فصار أكثر إصفراً . ومن تحت
تمارا جذبه ووضعته في الشمس الصريحة العارية ، الساخنة المقدمة
التي تذيب في العروق اليابسة ما تجمد خلال هذين اليومين . وشكراً
لجمعة الذي نظف النجيلة مما عليها من الأوراق الذابلة الموحلة ، ورش

عليها بعض الرمل لكي تحجب الأرض بسرعة .

وهذا الكرسي محتاج إلى الإصلاح السريع وإلا فسوف أندم ،
عندما تنكسر ساقه الخلفية فجأة فأجدني مستلقياً به على النجيلة الخضراء
التي لا تزال مثلة . فأرجو إذا سقطت أن لا تكون أمية مرجودة ولا
جمعة ولا حتى موني ، أما الأشجار فلا بأس بالسقوط أمامها لأنها
لا تضحك ، أو على الأقل تعرف كيف تداري ضحكها .

وموني هي الأخرى سعيدة بالشمس التي طلعت بعد غياب ، تروح
وتجبيء هنا وهناك في نشاط طاريء . بل إنها ألصقت بطنها بالأرض
مرة وقضت لتعلق بجذع زهيرة ، هاربة على سبيل التسلية من خطر
لا وجود له .

على النجيلة الخضراء سارت حتى وصلت إلى رقعة من الأرض
خفت حشائشها ، فجلست فيها وراحت تنظر إلي باهتمام كأنها تراقب
للمرة الأولى . على مؤخرتها جلست ولت حولها ذيلها الأسود ، مرفوعة
الرأس خضراء العينين تتأملني . وذراعاها قائمان أمامها مثل عمودين
من الجرانيت الأسود على باب معبد قديم ، صدرها وحده هو الأبيض
وجزء من بطنها وكأن المعبد مضاء من الداخل .

وقورة جادة متكبرة ، مستعدة لتلقي فروض العبادة في أي وقت
يختارده العباد . خوفاً العظيم نفسه أوشك أن يفلس وسط قراعة المقاولين
بناء الهرم ، فقال له الكهنة أن أحداً لن يفدّه من ورطته إلا الآلهة القطة
باسيت المعبودة شرق الدلتا بالقرب من زقازيق اليوم . فأمر خوفاً بمعبد
كبير يقام لها هناك ، وفيه تقدم أطيب القرابين من فئران سمينة
وعصافير . وحيث أن خوفاً قد أقبل من عمره وأكمل بناء الهرم ،
أفليس من الممكن أن تكون الخبيثة باسيت باتعة السر حقا ؟

هي تنظر في عيني بقوة ، من الأعماق القاسية لعبونها الخضراء .
الشر واضح هناك لا يمكنها أن تداريه ، حاقدة فيما يبدو على أهل هذا
الزمن الذين حولوها من آلهة تقدم لها القرابين إلى حيوان يلقي إليه
بالفتات . نظراتها تتكلم وأوشك أن أسمع صوتها يقول لي :

- اسمع يا أنت ! لا مانع من التظاهر فنحن لن نخسر شيئاً ، لكنك
تعلم جيداً أنني أكرهك ! نعم أنا أنتسح في ساقك في بعض الأحيان
مظهرة حني ، فإذا تمت على حجرك قرأت لك بعض القراءات أعرف
أنك تحبها لكن هذه كلها أشياء من متطلبات المهنة ليس إلا . فأنت
وقومك قد غرستم في نفسي طبيعة الملق والنفاق ، بعد أن قضيت آلاف
السنين تتولون أنتم تملقي ونفائي . وأنا الآلهة باسميت روح إيزيس وربة
السحر لا أنسى بسهولة ، وسوف أسترده ذات يوم محدي المفقود وحيث
سوف تعرفون معنى الثأر حين يكون !

يمثل هذه الكلمات المسمومة لا بد أنها ألقت الرعب في قلوب
أجدادي المزهفة فعبدها ليقوا شرها ، الكلمات التي تندفق مثل حمم
البركان من أعماق عبونها الشريرة الخضراء .

ومن خلفها أقبل قط غريب يتسحب ، ولا بد أنه واحد من أحفاد
أحفادها الذين يمشون الحثة كلها . قط باهت الخضرة مستطيل الجسم
مملوط كأنه فردة شراب حشاها العبال قطعاً . شيئاً فشيئاً يقترب منها
حتى صارت رأسه لصق مؤخرتها فانتبهت فجأة على أنفاسه الساخنة ،
وبسرعة البرق استدارت نحوه ولطشته قلماً يهد نمرأ مخططاً أو فهذا
أرقط ، فانتطقت بحري بغير نظام ولا وقار مثلما يحدث في بعض الأحيان
في دنيا البشر ، في لحظة عفة زائدة عند أنثى شرسة في أوتوبيس مزدحم .
وابتعدت موني نحو الشرفة في هيئة تأفف ، قرفانة من هذا المجتمع

الذي لا يتيح للأنثى العقيمة لحظة تنامها وهي آمنة على شرفها .
وأسفل السور الباقى سمعت خرقشة مألوفة ، ونظرت لأواجه العيينين
السوداوين الجاحظتين لضفدوع الذي قال لي متسائلاً :

- آووو !

فتلفت حولي قبل أن أجيبه قائلاً على سبيل المجاملة كي لا أكشفه :

- آووو !

فبدأ عليه أو عليها الرضاء ، وقفز قفزة أدخلته إلى الشونة . وتذكرت
ما قرأت من أن الضفادع قد صارت من الأكلات المفضلة في مطاعم
أوروبا الراقية ، أي أنها أكلة خاصة بالصفوة من الناس . وقد عرفت
من واحداً يعرف واحداً من تلك الصفوة أن طعمها مزيج من طعم
السمك والأرناب ، وهو شيء غير مستغرب من كائن برمائي يجمع
بين طبائع سكان الماء وسكان اليابسة . واقشعر بدني وأنا أتخيل نفسي
أمصص الفخذ الرشيق الذي يقفز تلك القفزات اللطيفة لذلك الكائن
الحبوب .

والحمام الشمسي الساخن المقدس قد زاد من قداسه أكثر مما يلزمي ،
أذاب ما تجمد في العروق وأوشك أن يذيب العروق نفسها ، فخير لي
أن أنتقل تحت قروش تمازا الرفيقة المتراقصة . وهناك تحت تمازا رفعت
ذراعي ومددت ساقي لأتمطى ، فإذا بي أفاجأ بنفسي وأنا أميل إلى الخلف
وأشرع في رحلة مؤكدة نحو الأرض ، حيث جلست على الكرسي القش
العتيق الأصفر ، فما أنقذني من مصري الأليم إلا جذع صديقتي تمازا ،
الذي وضع نفسه في اللحظة المناسبة في متناول يدي لكي أتعلق به وأنجو
من تلك السقطة المهيبة على أرض الوطن .

فجلست جيناً ألهث وأستعيد هدوء نفسي وقد زال الخطر ، ثم

التفت نحو تمارا بكل الحب المتوقع وقلت لها :
- مرسي يا روحي ، ألف شكر . موش غارف أرد جمابلك دي كلها
إزاي ؟

وأحطت جذعها العزيز بذراعي وطبعت عليه قبلة امتنان . ثم
تلفت حولي لكي أعلم إلى أن أحداً لا يراني ، عالماً أنه من النادر أن
يوجد بين الكائنات من يدرك المعنى الحقيقي لشعور الإمتان .

وبالإضافة إلى ذلك خطرت لي فكرة الملاك الحارس الذي يحبني
من بعيد لبعيد ، ويسهر على مصالحتي ويرعاني ويلهمني بين حين وآخر
بفكرة قد تبدو في وقتها غير ذات قيمة وهي في الحقيقة ذات نفع كبير .
نعم إن الشمس كانت حامية حقاً ، وأنتي كنت سائتقل من نفسي إلى
حيث أحبتي بأغصان تمارا ، لكن ما الذي جعلني أنقل الكرسي الأصفر
إلى هذه النقطة بالذات ، النقطة الملائمة لجذع صديقتي حيث يمكنني
أن ألتصق به عند اللزوم ؟ لو أنني لم أفعل ذلك كيف كان الحال يكون
وأنا ساقط على النجيلة كالجردل بالكرسي الأصفر العتيق ؟

الفصل الثامن

« من أين جاءت الشجرة الغريبة التي عندها كلام ؟ » .



- يعني ايه ؟

- معرفش يا بيه ، هم في المشتل بيقلوها كده !

- أنت اللي جايها ؟

- في الحقيقة لا يا بيه !

- أمال جت مين ؟

- لازم كان فيه عقلة قديمة مستخية تحت الأرض وطلعت مع العزيق .

دي بكرة تكبر وتبقى شربات !

فلست أدري كيف سأعود نفسي على هذا الأسم الغريب أكاليقا ،

حتى بعد اختصاره الحتمي إلى ليفا . كما لن أهضم فكرة أنها كانت

مدقونة تحت الأرض وطلعت لوحدها ، فكرة لا تملأ الدماغ تماماً .

لكنني مضطر في الوقت نفسه - ما دام جمعة قد رأى مثلها في المشتل -

إلى استبعاد تلك الفكرة المثيرة عن كونها شجرة من الفضاء الخارجي

وصلت إلينا في نيزك صغير لم يلتفت إليه أحد . وناظراً إلى النقوش الخضراء

على الورقة البهي عراني شعور غريب بأن هذه الشجرة تريد بلغة ما لا

نعرفها أن تقول لنا شيئاً . نعم ، ليفا تكفيها على سبيل الأسم ، اللهم

إلا إذا كنت مطالباً - ما دمت أكتب ملاحظاتي باللغة العربية - بأن

أواصل أصول التعريب إلى النهاية فأسميها أكاليقا .

في ركن من أركان المشي الجانبي وأنا أتمشى فوجئت بها أمامي ،
تلك الشجرة الغريبة التي لا أذكر أنني رأيها هناك من قبل . ولا جمعة
طالبني بشعنها كمعادته كلما أحضر شيئاً ولو كان عوداً يابساً ، ولا علمت
من أمينة أنه طالبها .

شجرة بارتفاع صدري تقريباً ، ذات جذع رفيع وأوراق كبيرة
مفلطحة تناقض بشدة مع حجمها المحدود ، ولذلك لا يحمل الغصن
الواحد أكثر من ورقتين أو ثلاث ورقات . والأوراق نفسها ذات ألوان
غريبة متسردة على كل ما أعرف عن النبات من حب للنظام والسميرية .
هذه ورقة زيتية غامقة وتلك فاقعة الخضرة فزدي ، وثالثة مقسومة بجرأة
غريبة إلى نصفين طوليين أحدهما أخضر عادي والآخر يرتقالي صارخ
بلون العجور ! وأخرى ذات لون بهي مسخس ، وفي أسفلها علامات
غريبة باللون الأخضر تشبه شخطة الرسام بفرشائه على باليتة الألوان .

فقلت لجمعة لما رأيته :

- ايه الشجرة دي يا جمعة ؟

- دي اسمها أكاليقا يا بيه !

- أكاليقا ؟

- أكاليقا .

الفصل التاسع

« كلب عنده عشم - رسالة من الحبيب - لماذا هذه الدوخة -
تذكيرة عبر العالم - الولد الجاهل بصيغة المثني »



فيدو يتشمس رسالة حمادة والدوخة

السلام الأربعة المؤدية من الشرفة إلى الحديقة ، أليس مضحكاً أنني بدأت أحمل هم نزولها وطلوعها ؟ فلو أن الرومانيزم مرض معد لقلت أنه قد انتقل من ركبة أمية إلى ركبتي . فإذا ما انتهيت من نزول السلام فيجب علي أن أرفع قدمي إلى أعلى وأنخطو بها أوسع خطواتي ، كي لا أدوس على طابور النمل الشغال هناك طول الوقت . وهما في الحقيقة طابوران لا طابور واحد ، أحدهما يسمى من سلم الشرفة إلى المحيط الحجري الواطي للنجيلة ، والآخر عكس ذلك تماماً . في الطريق تتقابل النسلمان فتبادلان ما يشبه القبلية الخاطفة ثم تواصلان مشوارهما الأبدي في صمت . لا أعرف ماذا يتقلون ولا فيما يضيعون وقتهم طول اليوم .

فما كدت أستقر على الكرسي القش الأصفر حتى رأيت في آخر الحديقة منظرأ بدا لي غريباً نوعاً ، وإن كان في الحقيقة ليس غريباً على الإطلاق ، فما وجه الغرابة في كلب نائم يتشمس ؟ لكنه نائم في حديقتي ، فإلى منى يظل هذا الغبي جاهلاً بأنه محرم عليه أن يحمل بحاسته إلى أرض حديقتي الطاهرة ؟

هو كان يراني من قبل أن أراه ومع ذلك لم يتحرك ، كل ما فعله حيث رقد ممدود العنق على الحشائش ، هو أن رفع نحوني عيناً سوداء

ملبسة بالعثم وهز ذيله عدة مرات . فهل عرف الوغد أن لي فيه رأياً مختلفاً عن رأي أمية ، وأنه ليس مضطراً إذا رأني أن ينهض مذعوراً ويأخذ في وجهه كالمجنون ؟

وفي عينيه السوداوين الذيلتين سمعت صوتاً متوسلاً يقول :

- وحياتك يا بيه سبني أتشمس هنا حيتين . أنا عارف ان عندنا شمس في الشونة لكن أنا نفسي ف شمسكم ، خصوصاً وسيادتك قاعد معايا كده زني ما نكون عيلة واحدة . وعلى فكرة يا بيه ، الست خرجت من شوبه !

فن أنا حتى أرفض كل هذه التوسلات وأقضي على هذا الكائن التعس بالحرمان من متعة شمس ومجلس ؟

والله يا صوت سيده - هكذا قلت له في عقلي ، إني لأتسنى أن أنهض لكي أحضر لك شيئاً تأكله من المطبخ ، لكنك طبعاً تعرف متاعب الرحلة . طابور النمل الذي يجب أن أتخطاه ثم السلام الأربع ، ثم البحث في المطبخ عن حلة فيها شيء يناسبك وعن كبشة لزوم الغرف ، ووعاء قديم يمكن أن يوضع أمام كائن نجس مثلك . ثم السلام مرة أخرى وطابور النمل ، وأنت تعرف ما قد بدأ عسك بعانيه من آلام الروماتيزم .

فخيل إلي أنني رأيت في عينه نظرة فهم وامتنان ودعاء لي بأن يظل بيتي عامراً أبداً ، وأنه لا يطمع في شيء مني سوى متعة الشمس والمجالسة . وعند باب الحديقة ظهرت أمية يتدلى من يدها كيس من الورق يحوي البقالة التي خرجت لشراؤها ، فانتبه الكلب على صرير الباب وهب مذعوراً يجري ، قاصداً إلى الثغرة التي تسلل منها في السور النباقي .

فلم تبصر أمينة شيئاً منه سوى مؤخرته قبل أن يختفي ، ومع ذلك صاحت به زاجرة :

- إسمي جك وجع في بطنك !

ثم لي أنا :

- وسيادتك مضايقه معاك هنا ولا إيه ؟

فلم أجبها ، وكانت قد وضعت الكيس على الأرض وانحنت تدعيس فيه على شيء ما .

- البوسطجي قابلني في السكة واداه لي ، هو راح فبن ؟

وأخيراً وجدت المظروف الذي تبحث عنه فالتقطته واعتدلت به واقفة بسرعة ، فما كادت تفعل حتى رأيتها تترنح وتناوه وتسرع بجذب الكرسي الأخضر الذي جلست عليه ، رافعة كلتا يديها لتضغط بهما على جانبي رأسها وهي تعض على شفتها السفلى .

- مالك يا أمينة ؟

فلم تجب من فورها ، كعادتها عندما تشعر بشيء يؤلمها ، كأنما لتزيد السائل قلقاً عليها . وأخيراً قالت بلهجة تأكيد :

- إذا فضلت كده ح اجيب الدكتور فتحي .

وسكنت من جديد فقلت في إلحاح :

- موش أفهم مالك ؟

- بقي لي كام يوم كل ما أوطي في الأرض أعمل حاجة وآجي قايسة مرة واحدة أحس بدوخة ، وشواكيش تدق في دماغي .

وانتظرت دقيقة حتى هدأت حالها ثم بدأت تفض المظروف الذي في يدها لتخرج منها رسالة عادية بخط حمادة ، وورقة حمراء غريبة بخط المطبعة ، فقلبت تلك الورقة حيناً بين يديها ثم دفعها نحوي قائلة :

- شوف دي تطلع ايه .

وطلعت تذكرة طائرة صالحة لرحلة إلى لوس أنجيلوس ذهاباً وإياباً . وفي الرسالة المرفقة تفسير لها من حمادة يقول .. « وهذه تذكرة إلى لوس أنجيلوس أخذتها بسعر رمزي من شركة الطيران التي التحقت بها أخيراً . فيا حبذا لو حضر بها أحد منكم ليتخرج على أمريكا . والإقامة على حسابي طبعاً » .

فحمادة إذن ما زال حمادة ، ذلك الجاهل الأزلي يعلم التحو ، الذي يخاطب والديه مستخدماً ضمير الجمع في منكم بدلاً من ضمير المثنى في منكما . وخبر آخر في الرسالة أسعدنا بشدة وهو أن الولد قد ترك ماساشوسيتس إلى كاليفورنيا حيث الشمس الساطعة والنسيم العليل ، وحيث استقر في وظيفة طيبة بإحدى شركات الطيران . وأخيراً تستطيع أمينة إذا سألتها أحدهم أين بقيم ولدها في أمريكا أن تقدم له إجابة صحيحة .

الفصل العاشر

« طفلة عجوز نائمة - اليوم الذي لعب فيه الولد - سر الابتسامة
الممنوعة » .



مثل طفلة صغيرة تنام أمينة ، وكل الناس أطفال إذا ناموا . طفلة في الستين من العمر ، فاعرة القم في تلك البلاهة التي تميز الإنسان إذا انفصل عن عالم الوعي . أرجو أن تكون أحلامها في كاليفورنيا أو حتى في ماساشوستس ، أو أي مكان عدا ذلك الذي من أقصاه جاء الرجل يجري . سمعها قرب الفجر تفتح الثلاجة وتأكل منها بشرافة كما كانت تفعل زمان عقب الكارثة . وبينما هي عائدة كانت تلهث وتكلم نفسها قائلة .

- بحميك يا حمادة ! بحميك يا حمادة ! بحميك ويخليك يا حمادة ! وهنا عاودت النوم ناسية على غير عاداتها أن تطفئ الأباجورة . وذات يوم كانت هذه العجوز المسكينة شابة حلوة شهية مليئة برغبة الحياة ، وبالطفل الذي قدر له فيما بعد أن يضيع . على كنية تمددت منذ سنوات طويلة تقرأ ، وفجأة هتفت تناديني قائلة :

- تعالي قوام ! إجري أمال ! هات إيدك !

وخطفت يدي لتضعها على نقطة من بطنها قائلة في فرح بالغ :

- حاسس بيه ؟ يلعب ! والنبي يلعب !

الجنين الذي انقضى شهر كامل وهي تنتظر منه أية إشارة تثبت وجوده ، فعلاً أحسست به يتفزز ويتلوى تحت يدي ، الكائن الغريب

الذي يتغذى في جوف الظلام على دمائها .

- لازم أقول لماما !

ووثبت لتطير النبا السعيد إلى جميع الأهل والأحباب . وعلى ضوء الأباجورة التي نسبت أن تطفئها رأيت صورتين للولد الذي فصاع . صورة له وهو طفل يصرخ ويضرب الهواء بذراعيه ، والأخرى لشاب وسيم يغالب ابتسامة تريد أن تفرض نفسها على الصورة . وذات يوم - رحمة بها من قسوة الذكرى المستمرة - عرضت عليها أن تنقل هاتين الصورتين إلى مكان غير حجرة نومنا ، فلمعت عينها بيريق غريب أفرغني ، وقالت بصوت أجش :

- أنت بتخوف تقول ايه ؟ أنا أشيل صور إبراهيم من جني ؟ ده حبيبي أنا ! دول يفضلوا قدام عيني هنا على طول ، الحمد ما ربنا يثقلني وأروح له أنا بنفسني !

وكثيراً ما ضبطتها واقفة أمام الصورتين بلا مناسبة ، أو جالسة على حافة السرير تتأملهما وتتشرب بهما وهي تتمتم بالصلوات ، وبين حين وآخر ترفع يدها لتسح عن عينها دمعة جفت من زمان . وسعلت أمينة سعلة جافة ومدت يدها لتحسس الأباجورة لتطفئها .

الذي يتغذى في جوف الظلام على دمائها .

- لازم أقول لماذا !

ووثبت لتطير النبا السعيد إلى جميع الأهل والأحباب . وعلى صورة الأبا جورة التي نسبت أن تطفئها رأيت صورتين للولد الذي ضاع . صورة له وهو طفل يصرخ ويضرب الهواء بشراعيه ، والأخرى لشاب وسيم يغالب ابتسامة تريد أن تفرض نفسها على الصورة . وذات يوم - رحمة بها من قسوة الذكرى المستمرة - عرضت عليها أن تنقل هاتين الصورتين إلى مكان غير حجرة نومنا ، فلمعت عينها بيريق غريب أفزعني ، وقالت بصوت أجش :

- أنت بتخوف تقول إيه ؟ أنا أشيل صور إبراهيم من جني ؟ ده حبيبي أنا ! دول يفضلوا قدام عيني هنا على طول ، الحمد ما ربنا يثبني لي وأروح له أنا بنفسي !

وكثيراً ما ضبطتها واقفة أمام الصورتين بلا مناسبة ، أو جالسة على حافة السرير تأملهما وتتشرب بهما وهي تتمتم بالصلوات ، وبين حين وآخر ترفع يدها لتسح عن عينها دموع جفت من زمان . وسعلت أمينة سحلة جافة ومدت يدها لتحسس الأبا جورة لتطفئها .

مثل طفلة صغيرة تنام أمينة ، وكل الناس أطفال إذا ناموا . طفلة في الستين من العمر ، فاعرة القم في تلك البلاهة التي تميز الإنسان إذا انفصل عن عالم الوعي . أرجو أن تكون أحلامها في كاليفورنيا أو حتى في ماساشوستس ، أو أي مكان عدا ذلك الذي من أقصاه جاء الرجل بحري . سمعتها قرب الفجر تفتح الللاجة وتأكل منها بشراهة كما كانت تفعل زمان عقب الكارثة . وبينما هي عاتدة كانت تلهث وتكلم نفسها قائلة .

- بحميك يا حمادة ! بحميك يا حمادة ! بحميك ويخليك يا حمادة ! وهنا عاودت النوم نائمة على غير عادتها أن تطفئ الأبا جورة . وذات يوم كانت هذه العجوز المسكينة شابة حلوة شهية مليئة برغبة الحياة ، وبالطفل الذي قدر له فيما بعد أن يضع على كنبه تعددت منذ سنوات طريقة تقراً ، وفجأة هتفت تناديني قائلة :

- تعالي قوام ! اجري أمال ! هات إيدك !

وخطفت يدي لتضعها على نقطة من بطنها قائلة في فرح بالغ :

- حاسس بيه ؟ يلعب ! والنبي يلعب !

الجنين الذي انقضى شهر كامل وهي تنتظر منه أية إشارة تثبت وجوده ، فعلاً أحسست به يتفزز ويتلوى تحت يدي ، الكائن الغريب

الفصل الحادي عشر

« زاهدة في الصفادع - لا تلدغ الآلهة مرتين » .



السلوك الذي تعودت عليه من الجراد والنطاط وغيرها من الكائنات الصغيرة ، أما أن يأتي ذلك السلوك من هذا الكائن الكبير فأمر بدا لها غريباً منه أو على الأقل غير لائق به .

مدت يداً حذرة مستكشفة ضربت بها على ظهر الضفدعة ضربتين خفيفتين ، فلما رأتها لم تفعل شيئاً خضعت بيدها على ظهرها لكي تثبتا على الأرض فثبتت ، راغبة في التعاون إلى النهاية مع القطة الصغيرة العبيطة ، فعمدت موني إلى الاجراء الأخير الحاسم بأن قربت أنفها من ظهرها لكي تشمها مع لحة صغيرة مستطعة ، فما كادت تفعل حتى سحب رأسها بسرعة ووثبت إلى الخلف كأنما تكهربت . بيدها تدعك أنفها بشدة لتمحو عنها شراً علق بها ، مع هز رأسها بقوة لتخلص من كافة آثار هذا الشر . فلو أنها وجدت نفسها في الحمام لما استغربت لو رأيتها تغسل وجهها بالماء والصابون .

وكان هذا حسبها من الضفدعة التي ظلت جامدة في مكانها - ساخرة في أغلب الظن من القطة العبيطة - حتى تأكدت من انتهاء المناوشة فقفزت قفزتين دخلت بهما إلى الشوكة من تحت السور النباتي .

كان درساً مفيداً لموني ولي ، وفي بعض الكتب التي تهتم بالحيوان عرفت سر المسألة ، كيف أن الطبيعة وقد رأت الضفدعة غير مهيأة للقتال ولا للفرار بهذه الصورة المزرية بالكرامة الحيوانية ، عمدت إلى تزويدها بغدة خاصة تفرز عند اللزوم مادة كريبية الرائحة والطعم شبه سامة ، فما يكاد المهاجم الجاهل يتعامل معها حتى يحدث له ما حدث للصغيرة العبيطة موني .

فهذا الضفدوع ليس بريئاً بقدر ما يوحي به منظره الفكاهي ، وليس يوجد بين الكائنات فيما يبدو كائن بريء ، ترى هل الأمر كذلك

لا شك أن المسامير التي دقته في الساق الخلفية للكرسي القش الأصفر قد عمل عملاً ، لكنه بالطبع ليس غاية المراد من رب العباد . فأرجو أن تكون عزيزتي تمارا وجذعها المتين مستعدين لإيقاظي مرة أخرى من بهدلة السقوط .

بالقرب مني تنام موني آمنة في حماي من المتطبلين ، وخرفشة مفاجئة تحت السور النباتي فرفعت رأسها ونظرت إلى حيث نظرت ورأينا ضفدوع ، فسرعان ما خفضت موني رأسها وعاودت النوم ، نادمة على الجهد الذي بذلته في رفع رأسها . وقد يتساءل غير خبراء الحدائق عن السبب الذي من أجله ترعد قطة ذواقة مثل موني في لحم كائن مفلوظ كالضفدعة ، وهو لحم يقدمونه كما نسمع في أرقى المطاعم الأوروبية . وذات يوم كانت موني صغيرة قليلة التجربة ، ف وقعت أعامى في نفس هذه الغلطة التي يقع فيها غير خبراء الحدائق .

خرفشة مماثلة في السور النباتي ما كادت موني الصغيرة تسمعها حتى ألصقت بطنها بالأرض إيماناً بالهجوم ، وهزت مؤخرتها تلك الهزة التقليدية ثم انطلقت كالسهم نحو الهدف ، فما كادت تصل إليه حتى فرملت وتوقفت وبدا لها أنه يحسن بها أن تعيد حساباتها ، فهذا الكائن لم يكن يسير مثل كل الكائنات بل كان يتفكر ، ذلك

مع الفراشة اللطيفة البيضاء ؟ وكان ما زال يتلکأ - ضفدوع - تحت
السور النباتي ، وقفز قفزة ثم قال لي مودعاً :

- آوور !

فتلفت حولي قبل أن أردد عليه السلام ، حيث أجلس على الكرسي
القش العتيق الأصفر .

الفصل الثاني عشر

« ملاكي الحارس ، أحبك - منظر مريب على جذع رينا -
اكتشاف موهبة الصراخ - رينا ضد المقطورة - غصن امتنان يخلج »



مرة أخرى أشعر أنني يجب أن أصدق حكاية الملاك الحارس الذي يسهر على مصالحني وبرعائي ويحفظني الكثير من بلاوي الزمن ، وإلا فما الذي دفعني في ذلك اليوم إلى أن أخرج إلى الشرفة مبكراً عن مواعدي بساعة ، في تلك اللحظة الحرجة الحاسمة التي تفصل بين الحياة والموت ؟
فما كدت أخرج حتى رأيت على الجذع الطويل وراء السور شيئاً يوشك من فرط غرابته أن يدخل في باب اللامعقول . رأيت رجلاً أصم اللون قبيح المنظر (والمخير غالباً) يحتضن الجذع الرشيق بذراعيه ويحيطه بشذذيه ويتسلقه بخفة القرد ، يحصره مشدود إليه بحزام خاص وفي يده بلطة كبيرة لامعة ، الأمر الذي لا يترك أي مجال للشك في العمل الوضع الذي يقتضيه ذلك المجرم الأثيم .

فلو أنني مصاب بمرض في القلب لسقطت من طولي صريعاً ، والحمد لله أن الروماتزم ليس من الأمراض التي تمنع الرجل من الصراخ عندما تدعو إليه الحاجة . من أعماق قلبي الملهوف أطلقتها عدة صرخات متلاحقة هزت أركان الحديقة هزاً ، صرخات ما كنت أحسبني قادراً على أن أطلق مثلها ما حييت .

- جمعة ! يا جمعة ! أنت فبن يا جمعة ! يا بن الكلب يا جمعة !
جمعة ! جمعة ! جمعة !

الرجل قبيح المنظر والمخير تجمد على الجذع الطويل الرشيق ، وصوت جمعة أثنائي من آخر الشونة يقول بدهشة واضحة :

- أبوه يا بيه ، فيه حاجة يا بيه ؟

- تعالى هنا حالاً !

فرأيت الخيمة البيضاء تقترب مهرولة وراء السور النباتي ، وأثنائي الصوت المبحوح متسائلاً في براءة .

- أي خدمة يا بيه ؟

فقلت بصوت بذلت أقصى جهدي لكي لا يكون متهدجاً :

- الراجل ده بيعمل ايه ع الشجرة ؟

فقال جمعة ببساطة :

- ح يقطعها يا بيه !

فصرخت به في جنون :

- يقطعها يعني ايه ؟ هي فوضى ؟

- الحاج زكير هو اللي أمر يكده يا بيه ، عشان المقطورة الجديدة يعني .

وشرح لي كيف أن المقاول صاحب الأرض قد اشترى للوري

مقطورة جديدة ضخمة ، وكيف أنه حضر بالأمس وحاول أن يدخل

بها إلى الشونة فتعذر عليه ذلك بسبب الشجرة التي تسد الطريق فأمر

بإقتلاعها .

- ببساطة كده ؟

- ده اللي حصل يا بيه .

- طب ما يوسع باب الشونة ؟

- توسيع الباب فيه صرف فلوس ، لكن قطع الشجرة ح يوجب فلوس !

- طب لفت وتعالى لي هنا .

وقبل أن يصل جمعة كنت قد أعددت في جيب الروب ورقة
 بخمسة جنيهات ، وبينما أنا أكله كانت يدي تتقبض عليها كأنما
 أستمد قوتي منها . قلت له بأكثر ما أتيج لي من هدوء :
 - شوف يا جمعة ، بصراحة كده الشجرة دي عزيزة علي . يعني زي ما
 تقول اتعودت عليها وبقت حبة م الحنية .
 فقال وفي صوته المبحوح رنة حزن :
 - والله وعزيزة علي أنا كمان يا بي ، غير شي أنا عبد المأمور ؟
 - خلاص يا جمعة ، ما تقطعهاش . عشان خاطرني أنا يا جمعة .
 ولمست في صوتي نبرة توسل لم تعجني ، وقال جمعة في حيرة :
 - بس أقول ايه للحاج زكبر ؟
 - قول له أي حاجة . خد .
 ومددت الورقة السحرية نحوه قائلاً :
 - راضي الراجل ده بحاجة والباقي لك أنت .
 ويبدو أن رائحة الورقة تفادى أكثر مما قدرت ، إذ صاح الرجل
 الذي على الشجرة فجأة يقول :
 - اشتغل ولا ما اشتغلي ما تفهمونا ؟
 فقال له جمعة :
 - انزل يا عبده وأنا جاي لك آه .
 فراح الرجل يبرطم قائلاً !
 - اطلع يا عبده انزل يا عبده ، ربنا يتوب علينا م الشغلانة دي .
 ودس جمعة الورقة في أعماق جيبه الفسيح وابتعد متميلاً . فتمنيت
 من أعماق قلبي أن أعرف أين يوجد ذلك الملاك الحارس لكي أذهب
 إليه وأفيه حقه من الشكر وأكافئه أن كان هذا ممكناً .

وعبر السور تيسمت للعزيزة رينا - التي كان يمكن أن تكون في
 هذه اللحظة كتلة خشب كبيرة ميتة على أرض الشوكة - وأرسلت لها
 قبلة على الهواء ، فرأيت غصناً من أغصانها يختلج بغير ما ريح تحركه ،
 وهذا في اعتقادي أقصى ما يجب أن يتوقعه رجل عاقل من شجرة
 كرورينا على سبيل اظهارها للإمتنان .

الفصل الثالث عشر

١ امطوانة سككت - امرأة باردة البطن - واجب الغزاء لصوت
خبيده - لحيستان نجستان لا لحسة واحدة ٥ .



- يا بختك يا خويًا بنومك ! بدمتلك ما ممتش حاجة خالص ؟
هكذا صبحتي أمينة وأنا جالس أشرب الشاي على الفتوي النبي
الذي كان أزرق ، في الكوب الكبير الخزف البني ، الموضوع على
الترابيزة المستديرة التي لا أذكر لماذا ولا متى طلبت بهذا اللون الأسود
الحاسم .

- ده صواتها كان واصل للسمما !

صوت أم شحانة كما شرحت لي ، حين فوجئت الولية وقت صلاة
المعجر أن ولدها قد كف عن البكاء بغير مناسبة ، ولا هو يتحرك ولا
حتى يتنفس أو يستجيب لضربات اليد ، فرقت بالصوت وجسمت
حولها بعض النسوة من الجيران . ساعة كاملة وهي تبكي وتلطم وتمدد
على الطفل الميت في حجرها ، حتى أقبلت الحرمة المختصة بتفسيه
وإعداده للدفن . وهو ثالث طفل يموت لجمعة كما رددوا من جديد ،
وعن جمعة قيل إنه قال في محاولة لتفسير ذلك :

- مرة بنت كلب بطنها باردة ، كل عيالها تنزل ناقصة سوا !

فقررت أن لا أترل إلى الحديقة تحاشياً لجو الشونة الحزين ، وصوت
النائحات اللواتي يتناوين سرد الحكايات عن عيال ماتوا :

- يا ست هانم يا حاجة !

صوت جمعة عند باب المطبخ فقصدت أمينة إليه وغادت بعد
لحظات قائلة !

- شوف له اتنين جنيه غلبان يدفن بهم الواد .

فأعطيتها الجنيهين ونهضت متحاملًا لكي أؤدي واجب العزاء البغيض
للرجل المنكوب .

- البقية ف حياتك يا جمعة !

- حياتك الباقية يا بيه .

- شد حيلك ، كلنا لها .

- كله على الله يا بيه .

وحيث وقف في الحديقة عند باب المطبخ لمحت عند قدميه شيئاً
غير طبيعي ، الكلب صوت سيده وقد دخل إلى الحديقة مع صاحبه
للمرة الأولى ، ووقف ينظر إلينا في بلاهة ويهز ذيله . ولم يكن غريباً
من أمينة أن تسمح له اليوم بالدخول ، فللموت رائحة أقوى من كافة
الروائح حتى رائحة النجاسة . واستأذن جمعة وابتعد في خيمته مطرقاً ،
حاملًا كما يبدو هم عملية الدفن أكثر منه حزناً على الطفل الذي مات .
أما أنا فلم أجد في نفسي ذرة واحدة من الحزن عليه ، ولربما
كنت أقرب إلى الارتياح وقد خلص هذا الكائن التعس من ترديد ذلك
اللعن الجنائزي الصديء الذي لم يعرف قط غير كلمة آه .

ثم غامرت بعد حين بالنزول إلى الحديقة وقد خيم الصمت على
الثونة إلا من صراخ الفرخة التي تبيض . على الكرسي القش الأصفر
جلست مستمعاً إلى صوت السكون ، ثم ساورني إحساس بأنني تحت
المراقبة . وفي الثغرة القريبة من السور رأيت البوز الطويل النبي لصوت
سيده وهو ينظر نحوي متسائلاً : هل أدخل ؟ وبالرغم من أنني لم أجه

فأنه دخل ، وبالقرب مني وقف يهز ذيله حائراً ماذا يفعل بنفسه وقد أصبح في الحديقة المحرمة ؟ فأحسست برغبة ملحة في أن ألمسه ، وإن ساورني في الوقت نفسه نوع من النور بسبب فكرة نجاسته ، فالتفت أن ضحككت من نفسي ومددت يدي نحوه داعياً .
- تعالى يا فيدو . قرب هنا .

فكان دوره في أن يتردد إزاء هذه المبادرة التي لا سابقة لها ، ثم بدأ يتحرك نحوي على مهل . خطا خطوتين وتوقف ، ثم خطوة أخرى جعلته أمامي . ونحو يدي الممدودة أدنى رأسه وخفضها لكي يتيح لي أن أربت على دماغه البنية العارية من الشعر .
- أنت صحيح نجس يا فيدو ؟

هكذا سألته فأصدر صوصوة خافتة غير مفهومة ، وأضفت قائلاً :
- البقية ف حياتك يا سيدي .

فهز ذيله بشدة حتى رقصت مؤخرته كلها ، وكانت طريقته في رد الغزاء أن مال برأسه وخطف من ظهر يدي لحسنتين لزجتين بلسانه الطويل الأسود النجس .

الفصل الرابع عشر

« لا تسرف في القلق على زوجتك - ماذا عن التذكرة ؟ - العجوز
والكوافير وشاي بالياسمين » .



طول عمري أقلق على أمينة إذا مرضت مهما كان مرضها تائهاً ،
وكنت أفسر ذلك بشدة حبي لها وخوفي عليها ، إلى أن تدخل في الأمر
عالم وغد من علماء النفس فأخطرني بأن إسراف الإنسان في التعلق على
المريض ما هو إلا محاولة لا شعورية من عقله الباطن لإخفاء رغبة كامنة
هناك في أن يكون ذلك المرض قاتلاً ! فأزعجني ذلك الكلام بالطبع ،
لكنني تجاهلته بصفتي رغبة لا شعورية عند صنف من علماء النفس في
تشويه كافة الدوافع النبيلة وتعكير مزاج أصحابها .

غير أنني معذور في قلقي عليها هذه الأيام ، بسبب تلك الدوخة
التي أصبحت زائراً شبه يومي لها . فاستدعينا الدكتور فتحي ، الرجل
المصبر التحيف الهادي إلى درجة البرود ، طبيب الأسرة منذ سنوات .
بدقته الشديدة وأمانته المعهودة كشف عليها ، وراح يستبعد على طريقته ما
يجب استبعاده من الأمراض ، ثم قال بصوت محايد :

- ضغوطك مرتفع شويه ، قللي الحوادث . ويا ريت تعلمي لي تحليل سكر .
وكان تحليل السكر سلبياً ، فأمرها بأسبوع من الغذاء الصحي
والراحة في السرير مع بعض الأدوية .

وهناك قالت لي أمينة وقد رأيتي جالساً أمامها لا أنتحرك :

- أنت ح تربط نفسك جنب كده ليه ؟ قوم على جنبتك جنب أشجارك !

وسحبت بلوكثوتنا وقلماً وقالت :

- دنا ح اكتب جواب لحبيبي .

فما كادت تشرع في الكتابة حتى بدت عليها الحيرة وقالت :

- بس ح اقول له إيه على تذكرة الطائرة ؟

فأقترحت عليها أن تكتب إليه عن الفرق بين الجمع والثني عند
مخاطبة الوالدين ، لكنها قالت متجاهلة :

- اقول له إيه صحيح ؟

- ح تقولي له إيه ؟ قولي له كتر خيرك وموش عاوزين النهاردة !

فقلت متخابة :

- طبعاً أقول له بيعت كمان واحدة ، يمكن تطلع في دماغك تاخذني
ونسافر !

فقلت ساخراً :

- أنا أسافر أمريكا ؟ دنا بأسافر بالعافية لآخر الجنية !

ونفضت فأحسست بالوخز في ركبتي كأني طلعت السلم .

- أنا قاعد جنبك في البلكونة هنا ، إذا عزتي حاجة .

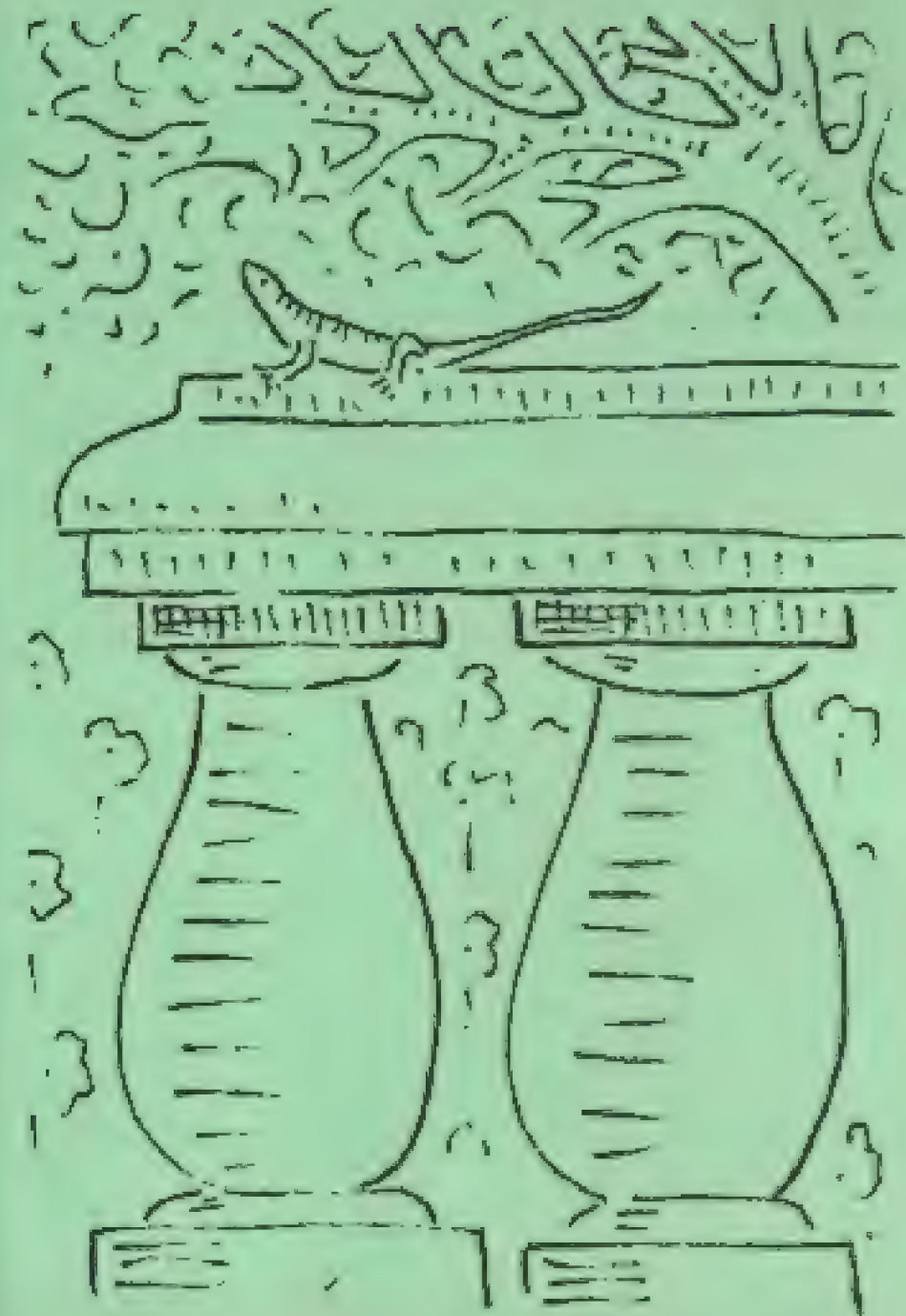
وتركتها وهي تعض القلم في حيرة ، تلميذة ملخومة في السنين .
وفي الشرفة جلست على الكرسي القش الأحمر بعد أن نظفت من زهور
الياسمين . الوقت أصيل وأنا لا أحب الأصيل وأفضل أن أقضيه نائماً .
هو أشبه شيء بامرأة عجوز نذهب إلى معهد التجميل كل يوم ، وتعود
منه لتجلس أمامي محاولة أن تستكشف رأبي في عيني ، وهو الرأي الذي
يجيب رجاءها على الدوام فتشع في بجاعيد وجهها صفرة تشبه صفرة
هذا الأصيل . وظلال الأشجار قد بدأت تستطيل وتداخل فأعست

الحديقة قبل موعدها . والشجرة الطويلة الرشيقة المهندمة قد اكتست
بغلالة خزينة صفراء .

وبجاني سقطت زهرة ياسمين في الكوب الخزف البني ، طفت على
سطح الشاي مثل زهرة لوتس على سطح بحيرة مقدسة . وأمنية مثل
الكثيرين تحب أن تشرب الشاي بالنعناع ، فلماذا لا أكون أنا أول
من يجرب شربه بالياسمين ؟

الفصل الخامس عشر

لماذا لم تأكل القطة السحلية ؟ - غذاء العيال الحلويين - الأمهات
الحنونات القائنات »



فيحييهم الخبراء بأنها ما صادتها لتأكلها وإنما صادتها من أجل العبال
الحلوين ، الذين لم يعد لبن الأم يكفيهم وصار تنويع الغذاء أمراً ضرورياً
لصحتهم .

بالسحلية قصدت اليهم ووضعها أمامهم ، فأقبلوا يشمونها ويفحصون
أمرها ، وكانت فيما يبدو أول سحلية يعاينونها في حياتهم . وأعجبهم
الوليدة لمداها بسرقونها وبأكلون ، والأم الحنون واقفة تنرج ولا يحظر
على بالها أن تمد يدها لتصيب فضوثة واحدة . فهي صورة مؤثرة حقاً
للحنان الذي تتميز به موني بالرغم من سفالاتها الأخرى العديدة .

وما كان لي بالطبع أن أنسى الأم الحنون الأخرى وهي السحلية ،
التي لا أشك من أنها ما غادرت العش بدورها إلا لتلتبس شيئاً من الغذاء
لعيالها الحلوين . أم حنون وجدت نفسها في لحظة من سوء الحظ بين
أنياب أم حنون أخرى أكبر حجماً ، والأمر كله يستوي ما دام يجري
في حجر الأم الحنون الكبرى ، أمهن الأرض .

ومددت يدي نحو موني أتحنس بطنها البيضاء وأقول مداعباً .
- أوعي يا بت تكوفي جبلي على كبر !

فصوبت إلي نظرة استنكار تقول :

- بلا نيلة ! أنا قادة آكل عشان أحيل ؟ !

موني راقدة على جنبها تلمس صدرها الأبيض وما يطوله لسانها
من بطنها ، مثلما كانت تفعل زمان في عهد الشباب في أيام الحمل
الأخيرة ، إذ تريد أن تجهز ألداءها الستة لاستئصال القطيطات العزيرة
المرقبة . لكن اليوم بالطبع لا تهدف إلى شيء أكثر من النظافة العامة .
رأيتها في مثل هذه الرقدة ترضع أربع قطيطات مختلفة الألوان ،
عائقة بصدرها وبطنها مثل ديدان كبيرة شرهة تلتهمها التهاماً . وهي
مستسلمة سعيدة تمد لسانها بين حين وآخر لكي تلمس ظهور القطيطات
وتنظفها ، وفي قول آخر أنه لا نظافة هناك ولا يحزنون ، وإنما هي
تريد الانضاع بما يوجد بوفرة في فروة القطيطات من فيتامين ب .

ولأمر ما رأيت أن تقطع عملية الرضاعة وتنهض ، متخلصة بصعوبة
من الديدان المنشبعة بجسدها . وهناك في الركن تركتها واجهت بسرعة
نحو السور النباتي ، ناظرة إلي وهي تنوّر كأنما تقول :

- خلي بالك م العبال !

ولم تعب في التوبة أكثر من لحظات ثم عادت متواثبة في نشاط ،
من فيها يتبدل شيء طويلاً يتلوّى قد يلتبس أمره على غير خبراء الحداثق ،
أما الخبراء ، فيعرفون فيه على الفور سحلية صمينة نصف صاحبة . ويتساءل
غير الخبراء عن السبب الذي من أجله لم تأكل القطة تلك السحلية ،

الفصل السادس عشر

أ أيام نظيفة وعصية - عن الهباب والياسمين - ياسمين في الزبالة -
لغز السم المعطر - أيلهاء العزيرة *



أمينة إلى الراحة أسبوعاً كاملاً فكان يجب أن تعوض بيوم من النظافة الحادة ، وبمنفضتها الكبيرة المفزعة راحت تضرب كل ما يقابلها من الأشياء الضعيفة العاجزة كالكراسي وغيرها . وها هو صوت الخبط يقترب في الطريقة الطويلة ، وما لبثت أمينة أن ظهرت عند مدخل الصالة ، فما كادت ترى المنظر على الأرض حتى ضربت يديها على صدرها .

يا ندامني ! إيه جاب الهباب ده هنا ؟ !

قلت متهكماً :

- عشنا وشفنا الياسمين يسمى هباب !

فتجاهلت كلمتي وقالت :

- ما أنت فاتح لي الباب على آخره !

وابتعدت مسرعة إلى الطريقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ . اختفت لحظة وعادت تحمل النقشة ذات اليد الخشبية الطويلة والجاروف :

بالنقشة تدفع هباب الياسمين نحو الجاروف ، في نشاط غير مألوف غابت عنه كافة أعراض الرومانزم . وانتهت من تحميل الياسمين في الجاروف فأنجحت إلى باب الشرقية قائلة لي باستئذان ساخر :

- ممكن أقفله بعد أذنك ؟

وكانت قد أقفلته فعلاً وهي تهرطم قائلة :

- مش قادر يبعد عن الشجر يوم واحد !

فلم أعلق بشيء ، إذ تعلمت بالتجربة أن أنجاهل ردالاتها الصغيرة ما أمكنني في مثل هذه الأيام الثقيلة . وحملت هي الجاروف وأنجحت به إلى المطبخ حيث يلقي الياسمين نهايته الحزينة في صفيحة الزبالة .

فتذكرت بحثاً قرأته في إحدى المجلات ولا أعرف مدى صحته :

عن النبات الثلاثي يحترق جمع محصول الياسمين في مزارعه عاماً بعد

لأنها طويلة ورشيقة فقد كان يجب أن تكون أكثرهن عذاباً أمام تلك الرياح الوضيعة المسماة بالخماسين . فتلك الرياح وإن عصفت بزهرة وتمارا فهو عصاف محتمل لا يسقط منهما إلا بعض الأوراق ، وأما عصفتها الشديد فعند قمم الأشجار المرتفعة ، تلعب بها بقسوة وتدفعها بيميناً ويساراً ، فيبدو للإنسان من شدة ميلها أن جذعها قد ينكسر في أية لحظة من هذا العث الربيعي . فإذا كان الشتاء يقصر على الناس في الخارج فهو يعرض ذلك بأنه يقصر علينا في الربيع ويوشك أن يحرمنا منه . فإذا تغنى شعراؤنا هنا بنسمات الربيع الحنون فهم لا يزيدون عن كونهم ببغاوات تردد ما يقوله الشعراء الذين عندهم ربيع حقاً ، ويتعمون عن تلك الرياح المتربة التي تكسو الأشياء باللون الأصفر الكتيب وتزيد العيون عماء على عمائها .

فتحت باب الشرقية فقابلتني دفعة ريح قوية مائلة إلى السخونة إلا أنها تستحق أن أجربها . وفي الداخل جلست على الفوق البنّي الذي كان أزرق ، ناظراً إلى أرض الشرقية التي أغرقها الرياح بزهور الياسمين الساقطة . ودفعة أخرى قوية من الريح نفخت كمية من تلك الزهور إلى داخل الحجرة لترين البساط النسي العتيق بالدوائر البيضاء المعطرة ، وصوت خبط ووزع أسمعه من بعيد على التوافذ وقطع الأثاث ، إذ أخذت

عام ، كيف أنهن جميعاً يمتن قبل سن الثلاثين لأسباب تبدو غامضة
وإن كانت غاية في الوضوح وهي علاقتهن بزهور الياسمين . ذلك أن
رائحة الياسمين الزكية المسكرة ليست بريئة بقدر ما تبدو ، بل هي في
الحقيقة سم قاتل لمن يدمن تعاطيه زمناً طويلاً . عاماً بعد عام يتغلغل
السم المعطر في صدور البنات المسكينات ويعشش هناك ، متسرباً إلى
دمائهن شيئاً فشيئاً لكي يقتلن ذلك القتل البطيء . وفي جوف القبر
الغفن المظلم ، ترى كم من الزمن يتضوع عطر الياسمين من جسم البنت
التي ماتت في سبيله ؟

وهبة ربيع شديدة فتحت الباب الذي أقفلته أمينة ، ولوثت البساط
النيستي مرة أخرى بالزهور الضاحكة البيضاء . فتنهدت ونهضت
لأجمعها ، وفي راحة يدي رفعتها إلى أنفي لكي أتھل من عطرها قبل
أن أضعها في جيب الروب الرمادي . نعم هي سوف تذبل هناك وتموت ،
لكن ربما كان جيبي قبراً أكرم لها بعض الشيء من صفيحة الرمال .
وباب الشرفة أقفلته كما كان ووقفت وراء الزجاج أقول للصديقات
معتذراً :

- مغلس يا حلوين ، سامحوني النهاردة .

ومن وراء ظهري أتاني صوت أمينة يقول لي في ذهشة :

- بنكلم مين ؟

- فأجبها في إيجاز :

- الشجر طبعاً .

وانتظرت أن تقول لي كلمتها الخالدة عن عقلي واكتماله لكنها

لم تفعل ، بل قالت بنبرة بريئة إلى درجة السذاجة :

- وهو الشجر ح يسمعك والباب مقفول ؟

فوجدت نفسي بالرغم مني أهتز بضحك مكتوم ، وقصدت إليها
لكي أطيع على تجاعيد خدها قبلة حب .

- اشمعني يعني ؟

هكذا سألتني في استغراب فقلت لها صادقاً !

- يا حبيك

الفصل السابع عشر

« رغبة دموية - هل هي تصلي ؟ - عروس وضيفة - الحب بغير رأس - هو يحب وهي تنفدى » .
 « طعام الصفوة - نظرة الموت الأخيرة - الثعبان المعتذر » .



وقبل أن تحجب بنفي أو إيجاب رحت أحكي لها كيف ترصد تلك الوضعية الخضراء مثلما تفعل الآن في انتظار عريس الغفلة ، عالمة أنه لن يلبث أن يصل ليقع في الشرك الذي سبقه إليه الكثيرون . فإذا وصل فما هي إلا لحظات من تردد الحياء حتى يتواجد في المكان الطبيعي بالنسبة للموقف وهو فوق ظهرها ، وكل شيء حتى الآن جميل .

هذه العروس قد حباها الله بميزة نادرة في عالم الحيوان ، وهي قدرتها الغدة على أن تلوي عنقها إلى الخلف وتدير رأسها دورة كاملة ، بحيث يصبح وجهها على حد تعبير الكوميديان الشعبي محل قضاها ، وعلى مهل تدبر تلك الآلة الجهنمية إلى الخلف حتى يصبح وجهها مقابلاً لوجه العريس تماماً ، الأمر الذي قد يوحى إلى مراقب شاعري الترفة - مثلما أوحى فعلاً إلى أكثر من عريس - بأنها قد اشتاقت في ذروة من الانسجام إلى أن تطبع على فم العريس قبلة حارة .

لكن القبلات كما يتضح بعد قليل هي آخر ما تفكر فيه تلك الوضعية الخضراء ، وأما هي تتلمس بغريزتها في رقبة العريس غدة خاصة وظيفتها كبح الغريزة الجنسية في الظروف العادية ، تلك الغدة التي تحولت في ظروفنا الحالية إلى عنصر معوق يجب استنصاله . بمهارة الجراح تشق في عنق عريسها شقاً مؤدياً إلى تلك الغدة ، وتشرع في قرقزنها بأكثر قدر من الرفق كي لا تصدم مشاعر العريس الشوان . ومن تلك الغدة تنتقل إلى رقبة العريس نفسها ، وبفلس الرفق والأناقة تشرع في قرقزنها حتى تأتي عليها ، وحتى يصبح العريس فاقداً لبعض من الأعضاء الهامة نسبياً للكائن الحي وهو الرأس !

إذ أن الجهاز العصبي في تلك الكائنات ليس جهازاً مركزياً كما هو الحال عندنا ، بل أن كل عقلة من العقول المكونة للجسم تضم مركزاً

على خضرة ياسمينية القرينة رأيت شيئاً أثار في نفسي على غير مألوف في رغبة شديدة في القتل ، إذ فضحت نفسها بحركة صغيرة تلك الكتلة الطويلة من الخضرة المتينة . رأسها مثلثة مثل كرسي البسكليتة ، وذراعاها مسننان مثل المناشير ، وبين حين وآخر ترفع يدها حول رأسها وتحركهما فيخيل إلى السذج أنها تصلي .

- نفسي أقوم اقتلها !

هكذا قلت لأمية حيث جلسنا في الشرفة في صباح خفت فيه حدة الرياح :

- هي إيه ؟

- المجرمة دي .

وأشرت إلى فرس النبي فراح أمينة تبحث عنها بعينها وسط الخضرة حتى رأتها فقالت :

- حرام دي مبروكة !

وحيث جلست على الكرسي الأخضر الذي نقلته إلى الشرفة شرحت لي كيف أن هناك رأياً له ثقله يؤكد أن النبي عليه السلام قد امتطى واحدة من بني جنسها إلى بيت المقدس ليلة الإسراء .

- تحبني أحكي لك اللي قريته عن المبروكة دي ؟

عصبياً مستقلاً يمكنه أن يعمل لحسابه الخاص بغير اعتماد على الرأس .
ومن ثم يحدث كثيراً أن يواصل العريس وظيفته الغرامية ولدة
طويلة وهو بغير رأس . هو غرقان لشوشته في حب السيدة وهي مشغولة
عن ذلك تماماً بالتهايم على مهلها ، قطعة قطعة ، أي بالاختصار أنه هو
يحب وهي تتناول الغداء . فإذا ما استنفد بعد حين أغراضه كعريس
طرحته عن ظهرها أرضاً وشقت بطنه باحثة عما فيها من القطع المسكرة
على سبيل الحلوى .

- شفتي يا ستي المبروكة بتاعتك ؟

فلم تجب أمينة من قورها ، متشاغلة باحصاء الغرز الزرقاء على إبرة
التريكو وقد تقاربت عيناها فوق أنفها فبدت شبه حولاء . وأخيراً قالت
متسائلة :

- جيت الكلام ده مين ؟

- من الكتب :

فقلت في إيجاز حاسم ؟

- ما نصدقش كل حاجة تقرأها في الكتب !

وأضافت قبل أن أعترض ؟

- وسيني وحياتك أعد الغرز !

وواصلت عملية الإحصاء ، وواصلت أنا تأمل تلك الكتلة الشريرة
الخضراء والوك أفكاري الدموية .

وخرفشة تحت السور الثباتي وجسم قفّر هناك مرتين ، ومن موضعي
في الشرفة لم يكن في وسعي أن أرى عيني ضفدوع . لكنني سمعت صوته
يقول :

- آووو !

وكان في صوته نوع من التساؤل لأنه هو الآخر لا يمكن أن يراني
من هناك ، وقفرة ثلاثة أخفته عني في الشوكة . وقفّر ذهني إلى يوم كنت
في حديقة الحيوان ووجدتني أمام بيت زجاجي كبير يقيم فيه ثعبان
من نوع العماققة ، في ركن من البيت رقد الثعبان ملفوفاً على نفسه كأنه
حبل من حبال البحارة كوموه على رصيف الميناء ليسحبوا به عند الطلب
إحدى السفن ، غارقاً في النوم وفي عينيه السوداوين المفتوحتين براءة
طفل رضيع . أكل فشب فنام ، فإذا صحا جائعاً فما عليه إلا أن يمد
رأسه إلى بركة ماء قريبة منه في نفس القفص ، وفيها تعيش قتيطة من
الضفادع مختلفة الأحجام ، تأكل ما تجد في الماء الراكد وهي في حال
غريبة من الطمأنينة واللامبالاة بالخطر الجاثم بجانبها طول الوقت .
ويصحو الثعبان فيمد رأسه نحوها ليتفحصها متخيراً منها ما يصلح
لوجته .

مدى لحظة تلتني عيناه السوداوان في أغرب نظرة بعينين جاحظتين
لضفدعة ، يتبادلها كائنان قبل أن يأكل أحدهما الآخر . في عين الثعبان
بحث عن الكراهية فلم أجدها ، ولا وجدت أي شعور بالإثم . وفي
عين الضفدعة لم أجد الخوف ولا حتى مجرد العتاب . فبينما أنا أنظر
في عيني الثعبان خيل إلي أنني سمعته يقول للضفدعة :

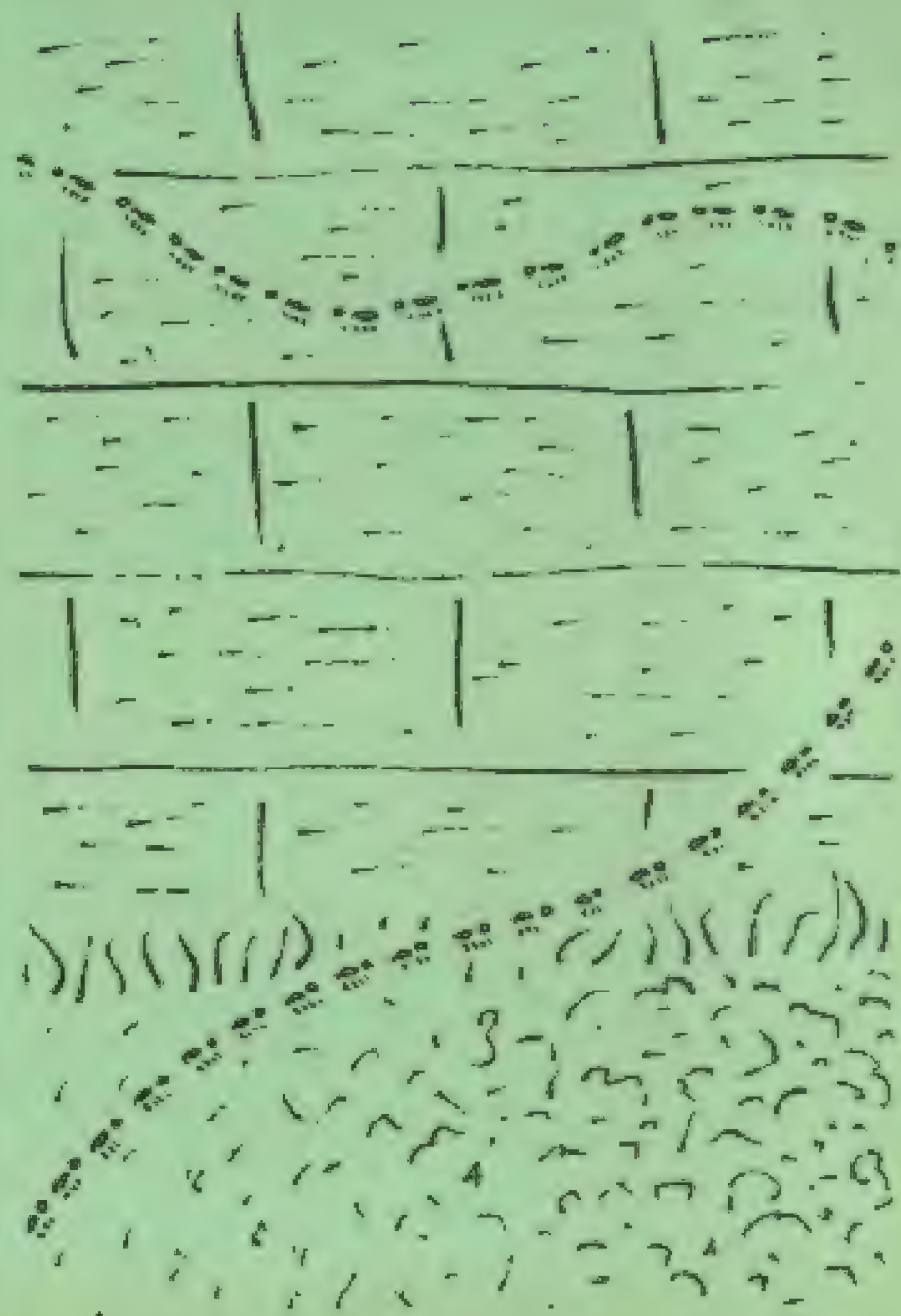
- أنا شديد الأسف يا أختاه على ما سوف يصدر مني حالاً ، لكنك
تعرفين أن هذا هو ناموس الحياة . لكي أعيش أنا يجب أن تسوقي أنت ،
ويا ليتهم وضعوا لي بدلاً منك فأراً سمياً أو خنزيراً صغيراً مشبعاً . أما
وليس أمامي سواك فلا مناص لي من أن آكلك ، وما أحبك ترضين
لي بتلك الفضيحة بين أقراني ، أن أكون أول ثعبان في التاريخ يموت
بسبب إضرابه عن الطعام لاعتبارات أخلاقية .

وكنيت أحب أن أسمع بماذا ترد الضفدعة على هذا الكلام ، لكن
الوغد لم يمهلهما .

وسوف تظل الحداثق خير مكان يقضي فيه الرجل العاقل وقته
طلما كان فيها إلى جانب الشجر والزهرة والعصافير والمقطط - ضفادع
ذات عيون جاحظة - متسائلة ، حقيقة لا تغير منها تلك الخلفية البعيدة
من الأئين الأبدى في الأسطوانة التي علفت على كلمة آه .

الفصل الثامن عشر

« الطايور الأبدى - قاتل النملة في جهنم - الجملة والتطاعي في
قتل النمل - حاسب النمل يا جمعة » .



و ذات يوم رأيت أمي تحمل زجاجة كبيرة تفوح منها رائحة الجاز ،
وتتجه بها نحو ركن في المطبخ حيث جلست القرفصاء لكي تفرغ
محتوياتها في أحد الحجور هناك .

- بتعملي إيه يا لينة ؟

هكذا سألتها في براءة فلم تجبني ، إذ كانت كما تبينت بعد ذلك
نصب الجاز في أحد أوكار النمل بقصد إبادته وتطهير المطبخ منه .
فعجبت أشد العجب من هذا التناقض الصارخ أمامي ، إذ تستبج أمي
لنفسها قتل آلاف النمل بضربة واحدة ساحقة ، في حين تحاسيني أنا
على استمئاعي البريء بين حين وآخر بقتل نملة واحدة يتيمة فهل هي
لا تكثر بما ينتظرها يوم القيامة من عذاب أليم ، أم تراها تعرف
- دون أن تقول لي - أن قتل النمل بالجملة حلال في حين أن قتله بالقطاعي
هو وحده الحرام ؟ أم أن المسألة أخطر من ذلك ، وأن الله جل جلاله
يكبل للناس بكيلين ، فيبيح للأمهات الكيبرات القويات من الجرائم
ما يحرمه على أطفالهن الصغار الغلابة المستضعفين ؟

وأستلة كثيرة من هذا النوع شرعت في توجيهها إلى أمي التي
استمعت إليها حيناً في صمت لتستوعبها ، فلما تم لها الاستيعاب قالت
في إيجاز صارم :

- اجري اللعب برة 1

وصوت لتدفق المياه من الخرطوم على أرض الحديقة خلف البيت ،
ثم ظهر جمعة بعد حين وهو يسحب الخرطوم على الأرض ويصوبه
هنا وهناك لزوم الري . حتى أرض الممشى الرملية يجب أن يرشها لكي
يثبت الرمال على الأرض ، وها هو قد أصبح على بعد متر واحد لا غير
من طابور النمل .

طبعاً دست عليه أكثر من مرة دون أن أنتبه ، طابور النمل الشغال
طول الوقت عند سلم الشرفة ، وكان انتباهي على إحساس بالقرعشة
العامة تحت قدمي ، فأنظر لأرى عشرات من النمل تهول هنا وهناك
في حال من القوضى الطارئة ، غير النمل الذي يتلوى على الأرض وقد
تحطم تحت ثقل قدمي الغليظة ، لكن الطابور في عمومه يظل سائراً
كأن شيئاً لم يكن ، يمر بالنمل المتلوي فلا ينظر إليه أصلاً ، أو ينظر
إليه ولا يراه ، أو يراه فلا يبدي أي نوع من الاكتراث بالأمر . فالمسألة
عنده حادثة يومية لا طلعت ولا نزلت ، وواحدة من المخاطر المألوفة
في مهنة النمل .

و ذات يوم وأنا طفل كنت أرى النملة سائرة فأضربها بقدمي
وأقتلها عامداً متعمداً ، شاعراً بأنني أمارس حقاً وأؤدي واجباً وأنا أقتل
هذا الكائن المهين الذي يعترض بهذه الجراءة طريق كائن عظيم مثلي .
ورأيتني أمي أفعل ذلك فوبختني أشد التوبيخ ، وحدثني بما ينتظر
القساة أمثالي من الهدلة يوم القيامة ، ومن عذاب الحريق بعد ذلك
في جهنم خالدين فيها أبداً . فلأني هذا الحديث رعباً وأقلعت تماماً
عن قتل النمل ، بل وصرت أمشي مطأطئاً الرأس نحو مواقع قدمي
مخافة أن أقتل ، حيث لا أدري نملة مسكينة شاردة .

هكذا هممت بأن أصرخ فيه لولا أن أمسكت لساني في آخر لحظة ، إذ أن كلمة كهذه كفيلة أن تثير عند جمعة دهشة بالغة قد تبلغ حد الشك في قواي العقلية ، ولربما صرت أضحوكة في الحنة لزم من طويل . والنمل مهما طلع أو نزل لا هو من الثدييات ولا من الطيور أو غيرها من القناريات التي أمت إليها بصلة القربى ، فلماذا أجعل نفسي هزواً في سبيل كائن لا تربطني به أي علاقة بيولوجية مباشرة ؟

فاكتفيت بأن أدبرت وجهي عندما وصل بالخرطوم إلى طاوور النمل ، متخيلاً المئات منه وهي تنفصص على الأرض أو تطير في الهواء أمام سيل المياه الجارف . ونظرت إلى وجه جمعة فوجدته باسماً سعيداً يحرك الخرطوم يمينا ويساراً وكأنه مدفع رشاش يصوبه إلى طاوور المخالفين له في الرأي . وما لم يقتله بالماء قتله بقدميه الحافيتين الغابقتين وبالخرطوم الذي يسحبه ورائه في رحلة الري المدمرة .

فتنهدت في استسلام وسكت ، وماذا كان في إمكاني أن أفعل ؟ هل تترك الحديقة تموت من العطش فداء للنمل وسائر الدواب الصغيرة التي تفرقها مياه الري ؟ وكان مما هون علي الأمر أن أياً من سكان الحديقة لم يبد أي نوع من الاكتراث بما حدث ، ما من غصن تحرك في تماوا أو ليمونة سقطت من زهيرة ، ولا البسمة فارقت وجه القرد الضاحك في حوض البائسيه ، فلماذا أنفرد أنا بحمل كافة التبعات على كتفي ؟

وابتعد جمعة بالخرطوم فابتعد معه صوت الماء ، ومن آخر الشونة ترامى إليّ صوت بكاء الطفل الجديد الذي كان مستكناً في جوف أمه ، والذي نزل ليتربى بدلاً من شحانة في عز جمعة . وكان بكأؤه حتى هذه

اللحظة ما يزال بكاء ، لم يتحول بعد إلى تلك الإنطوانة المعلقة على كلمة آه .

الفصل التاسع عشر

« لا تخرج ، يعني أخرج - كيف تعرف أن هذا الكائن ميت ؟ -
عندما شعرت أنني أكره أمينة - بدقية مازكة صوت سيده » .



قالت لي أمينة وقد رأيتني أنزل السلام الأربع إلى الحديقة :

- أحسن لك ما تطلعش برة ع الرصيف ! خلي تمشيتك النهاردة جوة ! فادهشي قولها طبعاً .

- ليه ، فيه إيه ع الرصيف ؟

- أنا عملت اللي علي وقلت لك ! وأسرعت بالاختفاء من باب الشرفة قبل أن أواصل التحقيق معها . وكان واضحاً أن هذه دعوة صريحة لي كي أخرج إلى الرصيف ، وما كانت لتقول لي ذلك لولا خوفها من أن أكتفي بالتمشية في الحديقة ولم أر أول الأمر أي شيء غير عادي ، فالرصيف هو الرصيف من نفس الشارع الصغير الهادي . ثم اتجه بصري يساراً نحو باب الشونة المحاذي لباب الحديقة على بعد أمتار ، فرأيت تلك الكتلة البنية المكومة هناك على الأرض . نحوها خطوط لكي أتبين فيها جسم صوت صيده ، وكان ساكناً أكثر مما يناسب كلباً نائماً ، أعضاؤه المبهثرة حوله بلا نظام لا يسكن أن تنمي إلى غير كتب ميت . نعم كان فيبدو ميتاً ، وفي جنبه ثقب واضح للطلق الناري الذي أوداه ، ودم متكلس حول الجرح يجمع عليه الذباب .

صورة للسكون الذي هو سكون ، والذي لا يدرك الإنسان معناه

إلا وهو ينظر إلى كائن ميت . اللانبض واللاحركة واللاوجود بأي شكل من الأشكال ، الكائن وقد تحول فجأة من حياة الخلايا النابضة إلى حياة الذرات الغامضة الخرساء ، سيان عنده الآن أن أسكب عليه الجاز وأشعل فيه النار ، أو أحضر ساطور المطبخ وأقسمه إلى شطائر صغيرة لزوم تغط الحنة ، لأنه ليس هنا أصلاً . لم يعد فيبدو أكثر من صيغة نفي للكلب كان .

والحمد لله أنني سمحت له في ذلك اليوم بأن يتشمس عندي ، كي لا يموت المسكين وفي نفسه شيء مني . وهو يعلم أنني كنت راغباً حقاً في أن أطعمه لولا رحلة المطبخ التي وصفتها له . وهكذا منحت في ذلك الصباح بعض ما يفتقده من الحب وأشعرته بأنه ليس نجساً بالقدر الذي يتهمونه به .

- شايف التجرمة يا بيه ؟

صوت جمعة الذي وصل من خلفي ، وفي وجهه حزن أكبر من الذي رأيته فيه يوم مات طفله شحاتة .

فقلت له في غيظ صادق :

- أين كلب مين اللي يقتل كلب غلبان زي ده ؟

- الحرامية يا بيه بقوا بعيد عنك زي الواعش في الحنة . ربنا يسوقك يا عبد الله .

- عبد الله مين ؟

- الربال عشان ياخده في العربية .

وحرك ذيل جلبابه فأطار الذباب المتجمع على الجرح حولنا ، وبصعوبة منعت نفسي من أن أقول له : تعيش أنت يا جمعة ! وفي الداخل قابضتي أمينة قائلة بلهجة لا تخلو من شبهة شماتة .

- قلت لك بلاش تخرج برة !

فقلت لها في غيظ :

مكلك مبسوطة شوية !

- ح انبسط ليه بقى ؟

- كلب نجس وخلصني منه !

- ولما أنت عارفت كده زعلان ليه ؟

وكانت هذه واحدة من الحالات التي أبذل فيها جهداً كبيراً كي لا أكره أمينة . وفي تلك الليلة سمعت ما بين النوم واليقظة صوت طلق ناري ينبعث من داخل الشقة ، وخيل إلي أن البندقية التي أطلقت كانت مبسوطة الصوت نوعاً .

الفصل العشرون

« محاولة لتعريف الشجرة - اختفاء أكاليفا - هاو مع أوا .



من هي الشجرة ؟

نعم أنا أحب أن أكلم الأشجار بين حين وآخر ، بل أستطيع أن أقول أنني أفخر بذلك ، ويدهشني أمر أولئك الشواذ الذين ينكرون على هذه الهواية الخلاقة الجميلة . شيء واحد يزعجني في ممارستي لهوايتي ، هو ذلك الصوت الذي لا يرحح يلح عليّ طول الوقت بقوله :

- أين هي ، ومن هي ، تلك الشجرة التي تكلمها يا سيد !
إذ أنني أكلم الشجرة فأوجه بصري إلى كتلتها الكبيرة الخضراء المكونة من أوراقها ، ومن ثم يعيد السائل صياغة سؤاله :

- هل تعتقد يا حضرة أن الشجرة هي أوراقها ؟
فأجيب بالنفي طبعاً ، لأنني واثق من أن الشجرة ليست - كما خيل إليّ فعلاً لفترة ما - أوراقها . لأن الأوراق تشيخ وتصفّر وتذبل ، وتسقط على الأرض لكي تدوسها الأقدام بقطعة محزنة . والشجرة نفسها ما زالت قائمة في مكانها يجذعها وأغصانها ، عارية عن أوراقها حقاً لكنها ليست شديدة الاهتمام بهذا العري .

فيعود سألني يقول بنبهة ساخرة مسترة :

- هل هي إذن جذعها وأغصانها ؟

فأجابهل سخرته وأجيب بالنفي ثانياً ، إذ أعلم أن هذه الأشياء لا تزيد عن كونها الهيكل الخشبي المقابل للهيكل العظمي عندنا .

وطاقم المواسير الذي ينقل الغذاء إلى الشجرة الحقيقية المجهولة .
- ما رأيك إذن (يواصل سألني سخرته) في أن الشجرة هي زهرها وثمارها ؟

فتعجبني الفكرة بأن أجيب بالموافقة ، لكنني مرة أخرى أجيب بالنفي فهل أنا قد أكلت زهرة عندما ملأت بطني من عصير بتزهرها ؟ وهل سلبت ثماراً شيئاً عندما ملأت صدري من عبيرها المسكر ساعة الغروب ؟

- لم يبق إذن إلا أن تكون الشجرة هي جذورها ، فما رأيك ؟
لكنني أعلم طبعاً أن الجذور ما هي إلا مخالب لتثبت الشجرة في الأرض ، ومصاصات لما يزخر به جوف التربة من عصائر الغذاء . وهنا يصل الصوت السائل إلى ذروة سخرته فيقول لي متخلعاً :

- إذن فأنت يا سيدي تكلم الأشجار بدون أن تعرف من هي الشجرة !
فاغتظت مرة وقلت له :

- هل أفهم من هذه الأسئلة المتعالية أن سيادتكم تعرف من هي الشجرة ؟
فتربث لحظة في الإجابة ثم قال بضحكة سوقية صغيرة :

- ها أو هو مع أو :

أو لعله قال :

- ها أو أو هو مع .

ولأنني لا أظن أن هناك فرقاً هاماً بين القولين فقد نسبت الأمر كله وذات يوم قادتني قدماي وأنا أتمشى إلى حيث تقوم أكاليفا ، عسى أن تكون قد وجدت طريقة تفصح بها عما تريد أن تقول . وهناك كانت المفاجأة الكبرى في انتظاري ، وهي أن أكاليفا ليست موجودة هناك أصلاً ! كأنما انشقت الأرض وايتلعتها فلم تترك منها إلا عصا خشبية

جافة مرشوقة في الأرض بارتفاع ركبتي . وغير بعيد رأيت كوماً كبيراً
من الألوان الفاقعة التي تولف أوراق ليفا ، مقطوعة مع الأغصان التي
نحملها ومع أكثر من نصف جذعها ، وملقاة في الركن تنتظر عربة
عم عبد الله .

مدى لحظة فلتنت أن جمعة قد أصابته لوثة مفاجئة فقطع الشجرة ،
فتأدبته من خلال السور النياقي حتى رد علي فقلت أسأله !

- أنت اللي قطعت ليفا يا جمعة ؟

ولم يكن يعرف اسم الشجرة فقال !

- ليفة إيه يا بيه ؟

فقلت مصححاً :

- قصدي الشجرة أكاليفا ، أنت اللي قطعها كده ؟

فقال متضاحكاً من جهلي :

- أنا ما قطعتهاش يا بيه ، أنا قرطتها ! عشان تكبر وتفرع وتبقى حلوة .

فقلت في غيظ :

- ما هي كت مفرعة وحلوة .

- لا يا بيه ، دي تفرع أد كده خمس ست مرات . اصبر عليها حبة

يا بيه ، دي ح تبقى شرابات خالص !

فقلت مازحاً :

- أنا افكرتها زعلت الحاج ف حاجة قال لك أقطعها !

فقال في بلاهة !

- الحاج ؟ !

- آه ، يمكن جه يدخل بالمقطورة وقضت في سكه !

فلم يجب جمعة وقد استعصى عليه الفهم ، لكنه كان قد أثبت

بالدليل العملي الحاسم أنني أستطيع أن أقطع جميع أغصان الشجرة
بجميع أوراقها ومعظم جذعها ، وبالرغم من ذلك لا أكون قد قطعت
الشجرة !

لم تست ليفا كما خيل لي . أو لعلها ماتت وبعثت من جديد .

من جوف الخشب الأصم في العود الجاف بدأت تنشق الأوراق الخضراء

من جديد ، صغيرة أول الأمر لكنها صارخة بنشيد الحياة . فهناك شيء

في جوف الشجرة قد أقسم - مهما مزقت أوصال الشجرة - يميناً مغلفاً

على البقاء . شيء لا أظن أنني سأنجح في معرفته أبداً ، لا أنا ولا ذلك

الوغد الذي يسخر مني بأسئلته السخيفة .

فقلت لتمارا وأنا أربت على جذعها :

- يعني يجرى حاجة يا متم لو تقولي لي أنني مين ؟

فما من عود تحرك فيها ولا ورقة ، فاستدوت إلى زهرة بأمل ضعيف :

- ولا أنني يا زوزو ؟

فكأنني بالنسبة لها ما قلت شيئاً ، ومن بحر الألوان في حوض

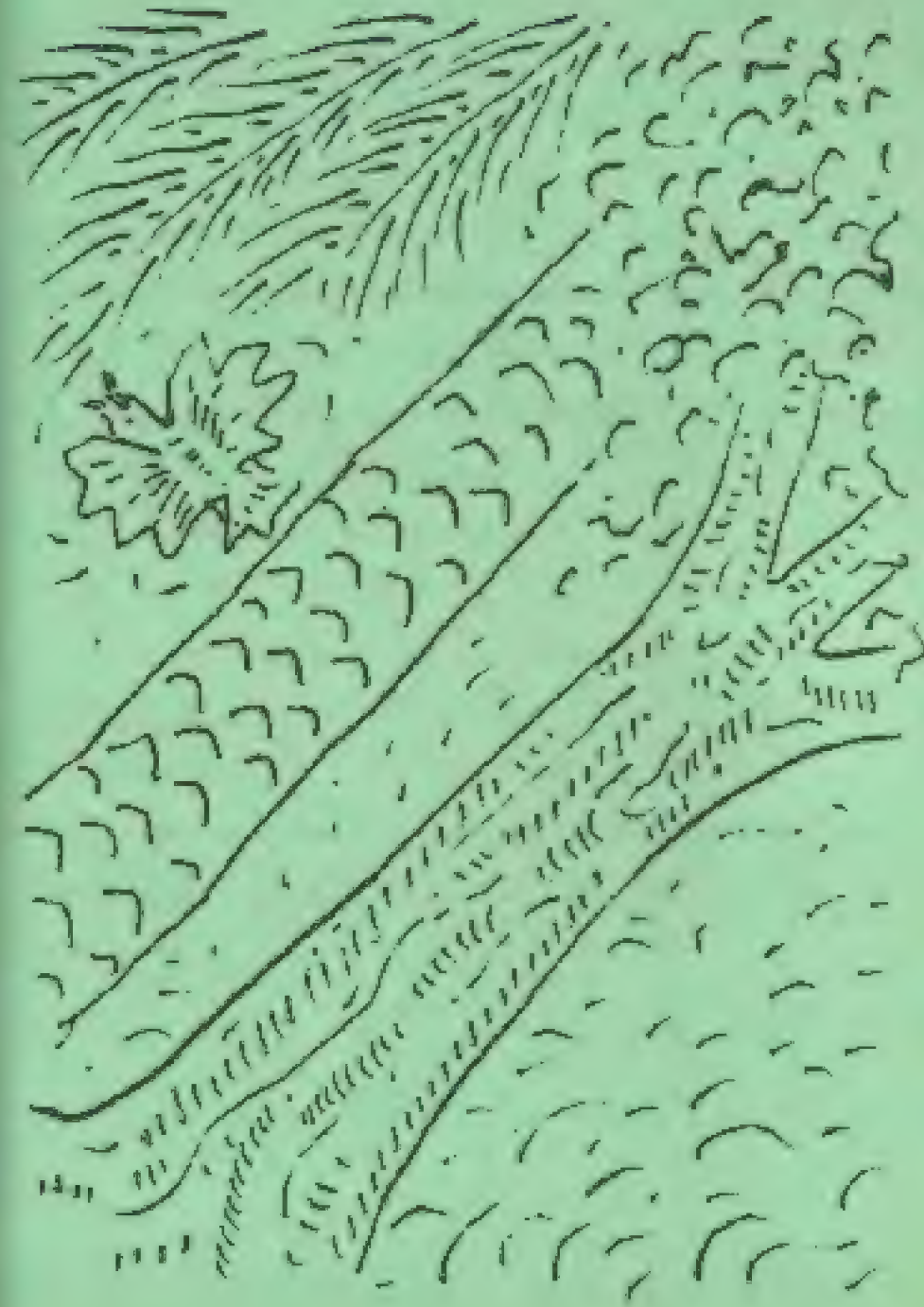
البانيسيه اندفع جسم صغير أبيض للفراشة اللطيفة البيضاء . ومع رفيف

أجنحتها المبتعدة خيل إلي أنني أسمع صدى صوت يقول :

- ها أو هع أو هع أو .

الفصل الحادي والعشرون

١ نفحة مباشرة من روائح الجنة - دعوة ولية ساعة مغربية - هل
أكلت نحلة عاشقة؟ وليمة متعددة الألوان - إنذار نهائي - يوم السقوط
العظيم +



هذا الوقت قبيل الغروب هو المفضل عند تمارا لكي تكشف عن كنوزها الكامنة ، وتنشر على العالم أركى ما عندها من نفائس العطر . ولعطر تمارا في الأنف لدعة مثل لدعة العسل في الفم ، فإذا الحديقة كلها بحيرة عسل وسك . حتى موني جذبتها الرائحة فأقبلت وجلت تحت الشجرة تتشمم الهواء ، منصبة إلى ما تبقى في الدنيا من زفرقة خافتة للعصافير .

في فستانها الرمادي خرجت أمينة إلى الشرفة ، سائرة على مهل بالسبيحة الطويلة ذات الحبات الصغيرة السوداء . ومثلما فعلت القطعة فعلت أمينة ، مدت أنفها لتلمأ صدرها بالعطر الزكي الحراق وارتسمت على شفتيها ابتسامة راضية ، إذ كانت أمينة واثقة من أن رائحة تمرحة بالذات ما هي الا نفحة مباشرة من نفحات الجنة .

على النجيلة سارت حتى وصلت إلى الكرسي الأخضر فجلست عليه تواصل التمتمة بالأدعية والصلوات . وفي القضاء الشاحب فوقنا ترددت أغنية الكروان الحزينة ، تذبذبت أنفاسها حيناً قبل أن تلوب في قسم الأشجار العالية .

صوت عصفور حط على غصن من أغصان زهيرة ، بل هما في الحقيقة عصفوران . حوار ساخن بينهما ومشاحة لا تليق بهذه اللحظة

الهادئة القواحة بعطر الجنة . فارتعدت شفتا موني مع شاربها كالمتعاد في مثل هذا الظرف ، وتوتر جسمها كلها في حالة من التأهب الوحشي الصامت . فهذه نفمة من نفحات العصافير تعلمت القطط أن تحبها منذ فجر التاريخ ، اللحظة المبشرة بسقوط أحد المتصارعين صريعاً . وذات يوم سمعت موني هذه النفمة وهي في شبابها ، وكانت تجلس هنا كما تجلس الآن ، فإذا بها تتحول فجأة من قطرة إلى سهم مارق ، تتسلق جذع الشجرة وتتغلغل بين أغصانها ، وفي لحظة تعود بأحد العصافير وقد أخرجته من عز المعركة ونزلت به لتأكله . كان ذلك زمان طبعاً ، أما اليوم فليس عندها سوى أن ترعش شاربها وتموء في مرارة .

وبقع من الألوان شرارقي في السماء ، وزفرقة هامسة لطيفة تبعث منها . سرب من اليمام وليس بيمام ، يظهر دائماً في الصيف في هذا الوقت قبيل الغروب . تغلب الطيور إذ تطير مثل الطائرات في يوم استعراضي ، ومع تقلبها يتحول لونها من الأبيض إلى البرتقالي إلى الأخضر . سألت جمعة يوماً عن اسم لهذا الطائر فقال في بساطة :

- ده الوروار يا بيه .

فسأله بريبة !

- بعني إيه ورور ؟

- عشان بيورور يا بيه ، موش سامعه سيادتك ؟

كنت أظنه يزقزق ، فإذا به في حقيقة الأمر يورور . وفي موسوعة مبسطة عن الطيور عثرت فعلاً على طائر باسم الوروار يحمل صفات هذا الطائر ، ويسمى أحياناً باسم آخر هو آكل النحل . فهو لم يطر إلى تلك الأعالي كما نحيل إلى من قبل لكي يمارس الحب أو العبادة ،

بل لكي يظفر بوجبة خفيفة قبل أن ينام . فهو يعرف أن النحل قد سبقه إلى تلك الأعالي لكي يتزاوج بعيداً عن تطفل الكائنات الأرضية ، وهناك في الأعالي الصامتة يستمتع الوروار الجائع وهو يتقلب بالثمام كل ما يصادف من النحل الولهان .

ولقد سمعت الكثير عن دعوة الولى في ساعة المغربة ، لكن هذه هي أول مرة أراها تستجاب أمامي بهذه السرعة . في آخر الحديقة سمعت صوتاً مكتوماً يرتطم بالأرض ، وهناك رأيت جسماً صغيراً يقفز ليظهر فيسقط ، ويقفز ثانياً فيسقط ، ولونه يتغير مع كل قفزة من الأبيض إلى الأخضر إلى البرتقالي . وفي لحظة واحدة لم أجد موئى بجانبى ، وكانت أشبه بحوت غطس في البحر بجانبى وقب هناك عند الوروار الساقط . وفي اللحظة التالية كانت كل تلك التشكيلة من الألوان كتلة واحدة بين أنيابها ، وكالهم المارق انطلقت به في مجاهل الحديقة وراء البيت . بدون أن أراها تخيلت أنيابها وهي تعمل بالتنف في الريش الأخضر والبرتقالي ، ثم وهي تغوص في اللحم الطري الساخن الساقط لغوره من السماء وفي جوفه ثروة إضافية من النحل الطازج . وريش كثير ملون سوف أجده صباح الغد على أرض الحديقة ، وربما متقار وساقان ، بغير الوروار الذي تنتمي اليه كل تلك الأشياء . إلى الأعالي الصامتة طار الوروار لكي يظفر بأكلة نحل طازج ، وإلى الأرض سقط لكي نظفر موئى بأكلة وروار طازج . لا لوم على موئى فهي قطعة ، وما هي إلا ولى طلبت من السماء عصفوراً يزقزق فأهدتها ورواراً يورور . وغير متوقع منها قبل أن تأكل الطائر أن تذبجه وتصفى دمه . تلك الإجراءات الخاصة بالمتحضرين أمثالي .

في المسجد القريب دوى الميكروفون بأذان المغرب ، فنهضت أمية

لتلي النداء . لكنها توقفت حين سمعت صوت جمعة المبحوح من خلال السور .

- مساء الخير يا بيه ، أنا عندي خبر ح يزعل سيادتك ، بس أنا عبد المأمور .

فلعب القمار في عبي ، إزاء هذا الصوت المنذر الذي لم أعهده من جمعة .

- بشر في يا بيه أنا كان ح ينقطع عيشي امبارح . الحاج جد زي النوبة اللي فاتت ويرضك حب يدخل بالمقطورة ما عرفش ..

وتريث فقلت في صبر نافذ :

- اتكلم وخلصني .

فقال جمعة في إيجاز حاسم ؟

- الشجرة ح تنقطع بكرة يا بيه . أنا بس جيت إدي سيادتك فكرة ، وأنا عبد المأمور .

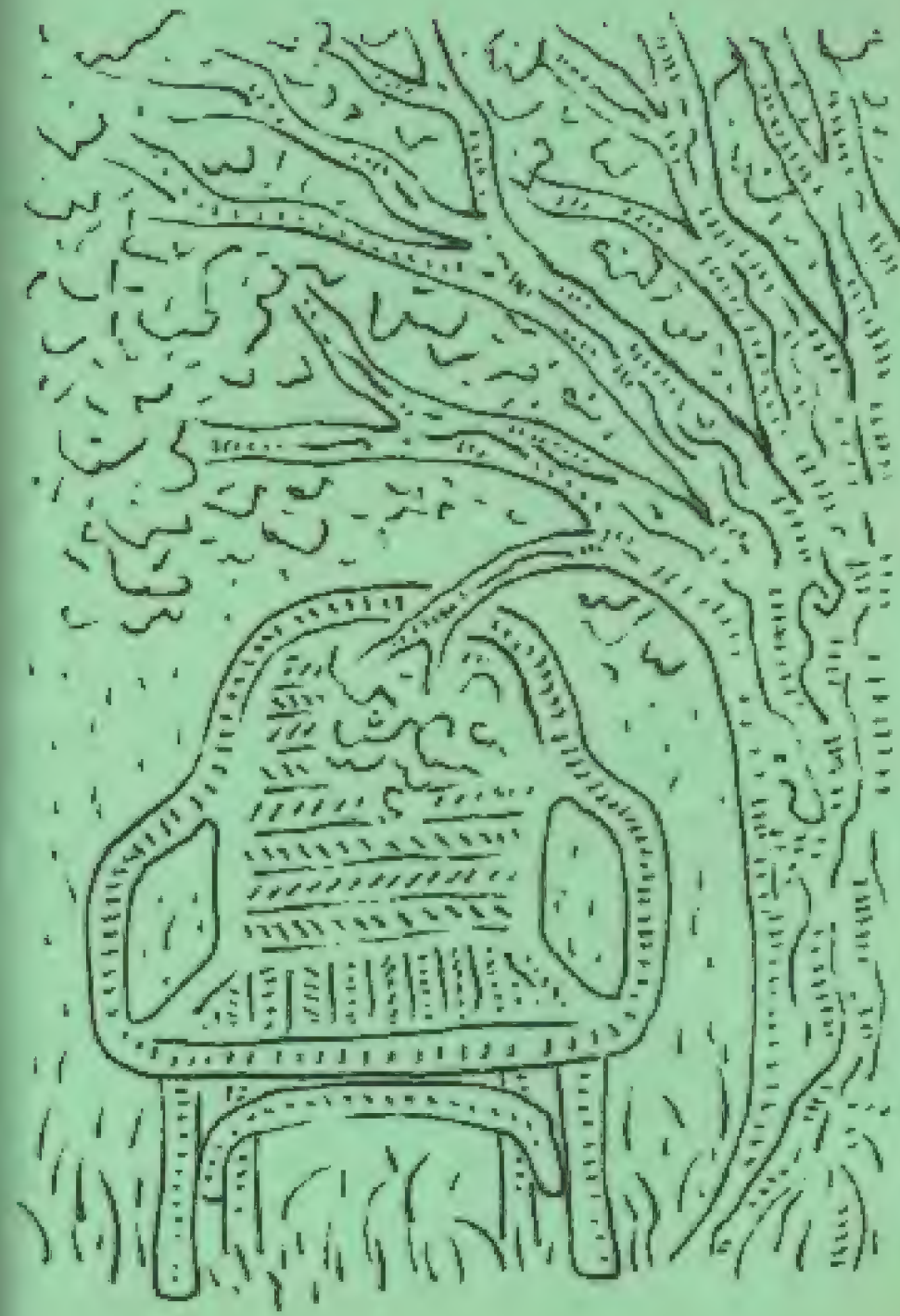
نظرت إلى أمية فوجدتها قد ركزت بصرها علي لتعرف كيف سأبدو وقد سمعت ما سمعت ، ولا بد أنها رأت منظرأ محزوناً حقاً ، وإن كان مكتوباً له أن يتحول في لحظة واحدة إلى منظر مضحك ، إذ ضربت بقدمي على الأرض بقوة واضطجعت إلى الراء على الكرسي : فإذا في أميل فجأة إلى الخلف وأشرع في رحلة جديدة نحو أرض الوطن . جالساً كما أنا على الكرسي القش العتيق الأصفر . بسرعة تقدمت من الأرض الطيبة حتى ارتطمت بها ، بعد محاولة فاشلة لاصطياد جذع تمارة كما فعلت في المرة السابقة .

كنت دائماً إذا وقعت أحب أن أنهض بسرعة ، لكن يبدو أن الدنيا قد تغيرت ، إذ أردت أن أحرك ساقي لكي أعتدل بالكرسي فتعذر

ذلك عليّ تماماً ، لا الساق اليمنى طاولعتني ولا اليسرى . فرفعت نفسي
بالعافية حتى اعتمدت بمرفقي على الأرض ، ورأيت أمينة تضع مسيحها
السوداء على الكرسي الأخضر وتأتي مسرعة لكي تنقذني . فانحنيت لكي
تمسكني من الأبطمين وتعيّني على النهوض ، وبقوة جذبتني إلى أعلى
وبسرعة ، فما كادت تفعل حتى تراخت قيضتاها عني وتركنتي أسقط
من جديد . وبداها رفعتهما لكي تضغط بهما على جانبي رأسها ، مترنحة
تأوه بصوت مكتوم . خلفها مدت يدها لتلمس الكرسي الأخضر فلم
يجد إلا طرفاً منه ، وهمت بأن تجلس عليه فانزلقت منه إلى الأرض هي
والسبعة السوداء .

سقطت جالسة أول الأمر ثم ارتمت على جنبها فوق النجيلة ،
متكورة متنززة ترتعد . ونجحت بعد حين في التخلص من ورطتي مع
الكرسي الأخضر فأسرعت إليها وانحنيت عليها لأفحصها ، أمسكت فيها
جسماً بارداً كالثلج يتصبب عرقاً ، مستفضاً على الأرض مثلما انتفض
الوروار الساقط منذ قليل .

الفصل الثاني والعشرون



طبعاً أتسنى أن أراها الآن ترفرف أمامي ، الفراشة البيضاء التي تزور الحديقة كل يوم ، لكن هذه مطالبة سخيفة للحياة بأن تغير من نظامها من أجل نزوة رجل عجوز مثلي . تلك الفراشة لا تأتي إلا في الصباح والشمس تغمر الدنيا بدفئتها وضئائها ، فما الذي يأتي بها الآن والشمس تقترب من الغيب ؟ إن النحل هو الذي يطير في هذا الوقت لكي يتراوج بعيداً في الأعالي الصامتة ، والوروار يتبعه لكي يأكل ما نيسر من النحل المتيم ، على صوت أغنية للكروان تنوب في تسم الأشجار العالية . وهذا الأخير بدوره ما أظنه قد طار وغنى لغرض أنيل بكثير من ذلك الذي من أجله طار الوروار وورور .

في الشرفة على الكرسي القش الأصفر بعد أن ظهرته من هباب الياسين . وبعد أن سمحت لنفسني بأن أصب في الكوب الخزف البني شيئاً من نبيذ عمر الخيام الأحمر ، قبل أن يملأ كأس العمر - كما قال صاحب النبيذ - كف القدر . الكوب على السور الحجري للشرقة ، وفي الشرقة تطيب الجلسة في هذه الأمسيات الحارة حيث تتحرك بين حين وآخر نسمة متعبة ولا تضيق للفور بين أغصان الشجر ، وحيث تمتزج أنفاس ياسمينية المهذبة بأنفاس تمارا الخليفة في توازن معقول . ونظراً إلى تمارا التي بدأت تفاصيلها تختفي في الضوء الذي أخذ يشحب ، لا أجد مناصاً

من أن أعترف بأن قلبي لم يصف بعد من نحوها كل الصفاء .
نعم أعرف أنه لا يجوز لي وفقاً لأي نوع من المعايير أن ألقى على شجرة تبعة كل ما حدث لي ولأمانة منذ أسابيع ، لكننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن تمارا لم تكن في أي يوم من الأيام مجرد شجرة ، إنما هي صديقة بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني ، ومنها يتوقع الإنسان كل ما يتوقع الصديق من الصديق لا سيما وقت الشدة . فإين كانت صديقتي - أو على الأقل أين كان جذعها ، ساعة تلك السقطة المأساوية التي تحاقت بنا ونحن نجلس تحتها وفي حماها ؟

بل أنني لا أستطيع - وهذا هو الأدهى - أن ألوم ذلك الكائن الذي كان هو السبب الرئيسي والتفاعل الأصلي في المأساة كلها ، وهو الكرسي القش العتيق الأصفر . مدى لحظة قررت أن ألومه فإذا بي أسمع من ناحيته صراخاً مدوياً يقول :

يا ناس خلوا ف قلبكو رحمة ! حرام عليكم يا مسلمين ! عشرين سنة وأنا شايلك على ضهري ما قلتش بم ، وبرضة موش عاجبك ؟ عشرين سنة وأنا مستحملك صبح وظهر وليل لما هديت حيلي قبل الأوان ، وجاي دلوقت تقول لي أنا غلطان ؟ انقي الله يا مقري ! حظ ف عينك حصوة ملح يا ظالم ! خلي ف وشك حبة دم يا بارد !

فأمسكت من فوري عن لومه وقد فهمت مشاعره ، وبكل الحنية الممكنة رفعتني عن الأرض وأنا أطيبط عليه ، وربما أكون قد قبلته أيضاً . ثم حاولت أن أمرنه على أن يصلب حيله ليمارس وظيفته كسالف عهده ، لكنه أعلن عجزه التام عن القيام بأية وظيفة من وظائف الكرسي ، حتى بدون أن يكون قشاً أو أصفر . فما كدت أرفع يدي عنه حتى ترنح وسقط كالقتيل فوق النجيلة الخضراء الضاحكة من خيبته . فلم

أجد ما أفعله به سوى أن أسند ظهره إلى جذع تمارا وأتركه هناك مثل خيال المآتة متظاهراً بأنه كائن حي . ولكي لا يشعر بالوحدة تركت بجانبه كرسي أمينة القش الأخضر ، الذي لم يعد يجد من يستخدمه بسبب غلظة ذلك الدكتور الوغد الشبيه بالقار .

إذ أصبحت أمينة على فكرة الكونسولتو ، فأحضرت لها الدكتور فتحي أخصائيين من زملائه يثق فيهما ، وكان أحدهما يديننا أسمى اللون مرحاً قال لأمينة وهو يتحسبها :

- عيني عليكى باردة يا حاجة ! يا ريت صحني زي صحتك !
وطلبوا كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان من أنواع الأشعة والتحليل ، واجتمعوا حولها ليفحصوها فقال الدكتور فتحي في سرور :

- الحمد لله ، ما قيش أي حاجة م اللي كنا خايفين منها .
وأيد الطبيب السمين رأيه قائلاً :

- ألف مبروك يا حاجة ، براءة من كله !
وهنا تدخل الطبيب الثالث الشبيه بالقار بوجهه الأسمر المشحوب وشاربه النافر ، فضحك ضحكة جافة لا طيبة وقال ساخراً :

- هها ، ده على كلام أجهزتنا !
فلم يعلق على كلمته أي من زميليه ، وأدرك هو غلظته فتحول إلى الكلام بالإنجليزية . وملأوا الروشة بأسماء الأدوية وجهاً وظهراً ، وقالت هي بعناد أعجبي !

- موش بس أعرف بتعالجوني من إيه ؟ !
فقالوا لها إنها الأعصاب المتعبة التي لم تجد ما تعبر به عن نفسها سوى تلك الدوخة التي تشكو منها ، وما هي إلا أيام من العلاج والراحة في السرير والغذاء الصحي حتى تسترد صحتها ونهض كالحصان .

- سي نس ! سي نس ! سي نس !

صرصار من صراصير الحقائق أرسل صغيراً قصيراً مستطعاً ، فلما لم يسأل فيه أي صرصار آخر خجل من نفسه وسكت .
- كرررر ! كرررر ! كرررر !

صوت العجوز موثي وهي تقرأ غير بعيد ، وأمينة تؤكد أنها قراءات ذات طابع ديني ، مثبتة بذلك أن الالهة باسميت ما زالت تعيش بيتنا .
كربية لرية السحر إيزيس .

- سي نس ! سي نس ! سي نس !

صغير جديد يحرب به الصرصار حفظه إذا كان هو نفس الصرصار ، فما كاد يطلقه هذه المرة حتى تجلّوب معه للفرور كورال من أصوات الصراصير ، آحاد منها أول الأمر ثم عشرات ، ثم مئات ثم آلاف .
العقل العام للصراصير وقد قرر أن يتعاون جميع أفرادها فجأة وفي نفس الوقت في ترديد نفس الأغنية .

ولعة الله مرة أخرى على ذلك الدكتور ، إذ سرحت أمينة ببصرها في ملاعة السرير البيضاء وهي تداعب سبحتها الطويلة السوداء ، ثم توقفت فجأة عن الشئح لكي تقول متسائلة :

- هو موش بيقول ان الكلام ده على أجهزتنا ؟
فقلت مستعظاً :

- هو مين ؟
- الدكتور .

ووصفته وصفاً لا يترك أي مجال للشك في هويته ، ثم واصلت أفكارها بقولها :

- يعني ممكن أجهزتنا دي تكون غلطانة .

فلم أعلق بشيء بينما استرسلت تقول :

- يعني ممكن أكون عيانة وعيانيا موش طالع في أجهزتنا !

فأصرت على الصمت ، بل إنني غادرت الحجرة متعللاً بسبب
أو آخر ، وأن كنت أعرف من خبرتي بأمانة أنها لن تترك الأمر يتوقف
عند هذا الحد . فلما كان اليوم التالي أفرغت ملعقة دواء في فيها وهزت
رأسها متخلصة من مرارته ثم قالت :

- يعني ممكن جداً أكون عيانة بمرض خطير وما حدش داري !

فلما رأني مصراً على الصمت رجعتي بنظرة غيظ وقالت !

- ما بتردش ليه ؟

قلت متتهداً :

- أقول إيه لواحدة عاوزة تعي نفسها بالعاقبة ؟

- أنت موش سمعت الراجل بودنك ؟

- أيوه سمعته ، وممكن جداً لجهاز ولا اثنين انهم يغلطوا ، لكن موش معقول
كل الأجهزة تغلط نفس الغلطة ف نفس الوقت !

فقلت مقاوحة :

- مش معقول ليه ، ممكن !

وسكنت إلى اليوم التالي ثم قالت لي بصوت أكثر من المعتاد نغومة :

- أسألك سؤال وتجاوبني بصراحة ؟

فقبل قلبي بين أضلاعي ، إذ كنت أعرف جيداً ما هو ذلك السؤال .

وواصلت هي باسمة :

- بس ما فيناش من زعل .

قلت في يأس :

- ربنا ما يجيب زعل .

فترددت لحظة حتى استجمعت شجاعتها وقالت :

- زعل مني لو سافرت وسبتك جميعين ثلاثة ؟

ثم أضافت بسرعة مستوثقة :

- زعل قوي يعني ؟ !

قلت وأنا أعرف الجواب :

- تسافري على فين ؟

- وأنا لي مين غير حبيبي حمادة ؟

وشرحت لي كيف أن تذكرة الطائرة معها ، والإقامة هناك عند
حييها (أرجو أن يكون في أمريكا مقابل غذائي للقول والطعمية) ،
ولتغطية المصاريف الطيبة ستبيع اسورتين وعدداً من الغوايش المكونة
عندها في قاع الدولار بلا فائدة فإذا يتقصها ؟

- والنبي لولا حامله همك أنت لسافرت النهاردة قبل بكرة ! أشوف
الأجهزة اللي هناك ح تقول إيه واطمن على روحي .

فذكرت ذلك العالم النفسي الذي اتهمني بأنني أتمنى موتها لأنني
أسرف في القلق عليها ، فهاذا يقول اليوم لو رأي أفعل العكس فأسرف
في الاستهانة بأمر مرضها وأحرمها من رحلة علاج تشبهها حتى لو كنت
أعرف أنه لا جدوى منها ؟

قلت في مزيج من الإخلاص والاستسلام :

- ما تحمليش همي يا أمينة ، سافري إذا كنتي عايزة .

وفي حجرة النوم الصامتة ، ولأول مرة منذ سنوات طويلة ، وجدتني
وحدتي أشبه بطفل صغير خائف . والبسمة التي تغالب الظهور في صورة
إبراهيم على الحائط حيل إلي أنها قد ظهرت فعلاً ، وبين النوم واليقظة
أتاني صوت الولد المفقود يقول :

- أنت له زعلان يا بابا عشان ماما جاية لي ؟

قللت له في دهشة :

- أنت مين قال لك انها جاية لك ؟

- موش ركبت الطائرة النهاردة الصبح ؟

- آه لكن موش جاية لك ، دي رايحة لأخوك في أمريكا . هي الناس

بتسافر عندكوف طيارات ؟

- أنا ما قلتش كده !

- آمال قلت إيه ؟

- ولا حاجة !

وراح يتسم لي عن أسنان بيضاء لامعة وسط وجه تحول فجأة

إلى فحمة سوداء .

- آووو ! آووو ! آووو !

صوت غليظ علا فجأة على صوت الصراخ ، صوت ضفدع

أرجو أن يكون صديقي ضفدوع . وللفور تبعته سائر الضفادع وانصمت

بالغناء إلى هذا الحفل المفتوح ، صونها الغليظ الأجوف هو خير خلفية

لرسعة الصراخ . أرجو أن تكون بركة المياه التي وجدتها الضفادع

مكونة من ماسورة مياه مكسورة لا من طفق المجاري ، وأن كان مستبعداً

طبعاً أن يتأثر الصوت بتوعية الوسط الذي ينبعث منه .

وهذا الضجيج كما يشعون هو نداء من الذكور إلى الإناث بقصد

اخواتهن ، الأمر الذي إن صح فهو دليل على أن ذوق الضفدعة غريب

نوعاً . وعلى أي حال فجدير بنا ونحن نتوسع في تطبيق الأفكار الفرويدية

على الجنس البشري ، أن نقتصد في اقتحامها على أجناس أخرى محترمة

مثل جنس الضفادع .

- كرررر ! كرررر ! كرررر !

ربييه إيزيس تحبيك يا أمينة ، وتدعوك لك دعوة مخلصه اعتقاد

أنك محتاجة إليها ، حيث تعيشين وسط شعب - إذا صدقت أفلامه -

نصفه لصرص وقطاع طرق والنصف الآخر يجري تحت سيل من

الطلقات النارية التي لا تنقطع . وأرجو أن يكون حمادة موجوداً معك

عند اللزوم ليساعدك على الجري . في البلوفر الصوف الأزرق الذي سهرت

بجاني تنسجيته بجانب المدفأة المشتعلة . ترى هل نشترك مرة أخرى في

تلك الجلسة الطويلة الدافئة ؟ ولماذا لم تكتبي لي حتى الآن إلا ذلك الأخطار

الموجز بأنك قد وصلت إلى لوس انجيلوس بالسلامة ؟

- طاخ ! طاخ ! طاخ !

صوت يبدو أنه يحتاج إلى وقت طويل لكي يُدْفَن في أعماق عقلي

الباطن مع سائر الجثث المدفونة هناك . أمينة نفسها بكّت يومها حيث

جلست على سريرها ، وقالت بصوت تخنقه العبرات :

- صحيح ما باحبهاش لكن بتقطع قلبي !

صوت طرقات الناس على جذع الطويلة الرشيقة رينا في ذلك اليوم

المشوم ، ليكسروه . قلما كسروه ألقوا بحبل طويل على عنقها ليختنقوها ،

وبه راحوا يجذبونها لتسقط حيث قدروا لها من أرض الشونة . لكنهم

أخطئوا في حساباتهم طبعاً ، وما كان لرينا أن تسقط حيث قدر لها

المجرمون . هي مالت وفقاً لرغبتها الخاصة نحو البناء الأصفر المشقق ،

متجهة مباشرة إلى النخلة الغبراء رفيقة عمرها في الشونة ، أحاطتها بتصونها

واحتضنتها وكأنها أقسمت بنبأ ألا تصل إلى الأرض إلا بها . وشرة

واحدة من المقاومة لم تظهرها النخلة العتيقة كأنها كانت تتطلع من زمان

وبشوق إلى هذا اليوم المقترج الذي تريح فيه جذعها المائل على صدر
أمها الأرض .

أما عنك أنت يا جمعة فيؤسفني أن أصارحك بأنه لا يسعني إلا أن
أضحك عندما أحاول أن أتخيل شعورك وقد فوجئت بنفسك طريقاً
على الأرض وفوقك شجرتان أحدهما طويلة رشيقة وكانت مهندمة ،
وفي حضنها نخلة غبراء تتدلى منها سباطة بلح أحمر تناثرت حباتها على
أرض الشونة ، فراح الرجال يلتقطونها وقرشونها وهم يحاولون تخليصك
من الشجرتين .

حادث كان ممكناً جداً أن يموت فيه جمعة ، بل الغريب حقاً أنه
لم يموت . فمن هنا يمكننا أن نفهم المزيد عن طبيعة الرشيقة رينا ، كيف
أنها لم تكن رشيقة وجميلة فحسب وإنما كانت في الوقت نفسه - على
عكس معظم الجميلات - رحيمة القلب أيضاً - صحيح أن جمعة قد
طاب نفساً بأن يذهبها بعد تلك العشرة الطويلة ، لكنه كان مضطراً إلى
ذلك في سبيل لقمة عيشه . فكان كافياً في عرف رحيمة القلب رينا -
بدلاً من عقوبة الموت القاسية - أن تكسر له رجلاً واحدة لا غير ،
ورجله اليسرى لا اليمنى زيادة في الرأفة به .

أسبوع واحد قضاه جمعة في المستشفى ثم خرج بتلك الساق المجبسة
البيضاء . فذهبت لأزوره في الشونة حيث وجدته جالساً أمام البيت المشفق
ممدود الساق وحوله عدد كبير من العصافير تنقر في الأرض مع القراخ
التي ربما كانت بينها تلك الفرخة التي تربد دائماً أن تبيض . ومن داخل
البيت ترامي إلى صوت الطفل الجديد وهو يبكي ، وبكاؤه قد بدأ يتحول
إلى ذلك الصرير الصديء القديم ، وإن لم يصل بعد إلى درجة الثبوت
على كلمة آه .

وقال لي جمعة باسماء وهو يتحسس ساقه المجبسة !

- طب والنبي أنت فيك شيء الله يا بيه !

فسرتني الكلمة وإن كنت لا أعرف سببها ، واسترسل قائلاً :

- ده ذنب الشجرة اللي سيادتك بتحبها ! دى جزائي عشان قطعنها !
وبالرغم من سخافة الفكرة فقد أشاعت في نفسي نوعاً من السرور
الخفي ، واسترسل :

- ولما جيت أقطعها النوبة اللي فاتت ، تاني يوم شحاتة مات ! والحمد
لله اللي جت على أد كده ، ده لولا ان قلبك طيب كنت رحت فيها !
وسوف يحتاج إلى عكاز طوي لمدة لا يعلمها إلا الله ، وأرخص
عكاز طوي في السوق ثمنه عشرة جنيهات . وكان يعرف بخبثه القطري
أنني محتاج إلى أن أدفع له نصف هذا المبلغ على الأقل ، لكي أنخفف
من مشاعر الذنب التي تنجح بكلامه في أن يفرسها في نفسي .

- كرررر ! كرررر ! كرررر !

لا شك يا موني أنها كانت لفظة حلوة منك ، أن سمحت لصوتك
الحبيب بأن يبقى معي في وحدتي . نعم أعرف أنه كان أفضل عنك
أن تدفني تحت زهرة وتمارا لتكوني معنا دائماً كسالف العهد ، لكنني
كرهت لك أن تكوني موطن الأقدام طول الوقت . وأنا واثق من أنك
ستكونين سعيدة هناك في ذلك الركن الأمين بجانب ليلى ، إذ أشعر بأنك
أنت الأخرى - لا تكذبيني من فضلك - كنت تريدن أن تقولي شيئاً .
- أنا عارفة أنني ح اموت قبلها .

هكذا كانت أمينة تحب أن تقول دائماً ، والحمد لله الذي خيب
ظنك يا أمونة . وإذا سألتني كيف وقع الأمر فأنا في الحقيقة لا أعرف
على وجه اليقين . كل ما أعرف هو أنني كنت قد قطعت الطرقة الطويلة

ووصلت إلى الصلاة في طريقي إلى المطبخ لكي أعمل الشاي ، إذ حانت مني لفظة نحو المدفأة فرأيتها ملقاة هناك على البساط النبيتي العتيق . نعم كانت ملقاة هناك لا نائمة ، إذ كانت موثوقة تعرف دائماً كيف يجب أن تنام . كانت تضم ساقيها وذراعيها وذيلها وتريح ذقنها البيضاء على ساعدها الأسود ، وأذناها مطرطقتان حتى وهي في عز النوم . أما هذه المرة فكانت القطة ساقطة هناك لا نائمة ، مترامية الأطراف بدون أي محاولة نظام فتقدمت نحوها متلصصاً لسبب لا أفهمه ، ومرة أخرى وجدتني أجابه ذلك السكون الرهيب الذي خبرته من قبل في صوت سيده - اللانبض واللاحركة والانتماء نهائياً إلى نسيج هذا العالم الحي . فكأها متباعدان مثل فكي تمساح ، وأنيابها بارزة وفمها كهف كبير مظلم . مستحيل طبعاً أنها كانت تريد أن تلتهم شيئاً ، ومستبعد أنها كانت تعوي ، فما من تفسير للأمر إلا أنها كانت تشاءب . في جسمها الواهن المتعب شعرت بدبيب أقدام الموت الباردة فقصدت إلى المدفأة تنشدد الدفء ، مؤمنة حتى النهاية بأنها قادرة على إشعالها بقوتها السحرية ، هي الالهة باسيت روح إيزيس ربة السحر وهناك أمام المدفأة توقفت لحظات تتساءل أين هي وماذا تفعل ، ثم وجدت نفسها تنهالك على الأرض قهالكاً ، وفي هدوء وكبرياء ثاءت وماتت ، وحدها هناك على البساط النبيتي العتيق .

نعم كنت أحب دائماً أن أشفع هذا الصوت بالمسح في حنان على ظهر صاحبه الناعم الأسود ، وبتحسس أسفل عنقها الأبيض المرتعش بذبذبات القراءة ، أما الآن فليس أمامي سوى أن أستمع بالصمت وحده .

وفي آخر الشونة وهج لإحدى جمرات الفحم في جوزة جمعة ،

أنحيله بسندها إلى ساقه المجهبة لكي يصلح شأن الجمرات ويسعل . والكوخ الحجري شبح في الظلام لقبر كبير ، في جوفه جمعة وأسرة العصفير والأسمنت . شيئاً فشيئاً بدأت تستبين زواياه وترسم على سماء آخذة في الاصفرار ، مع ظهور ذلك الجسم النحاسي فوق سقفه مثل عين فضولية تلتصص على أتباعها من مجاذيب القمر . الربيع الأخير من شمامة اسماعيلية كبيرة صفراء بلون الشواطئ الرملية للترعة ، حيث ألقى بنفسه ليترد ذلك الذي جاء من أقصى سيناء يجزي . بل هي كتلة سوداء متفحمة سرفت من الشمس بريق شعاع أصفر ، جامدة هامة جرداء لا حياة فيها ، وآثار بين بحر العواصف وبحر الظلمات لأخذية المغامرين الأمريكيين الذين هبطوا هناك يوماً . عسى أن تكون الأجهزة التي وصلت إلى القمر قادرة على أن تصل إلى سر دوختك يا عزيزي أمونة .

- سي تس آووو ! سي تس آووو ! كررررر !

. الأصوات تنداخل وتندمج وتذوب في صوت واحد شجي وجليل ، وصوت جديد بدأ يتسلل إلى المعزوفة في حياء أول الأمر ثم في جراءة وانطلاق . شبيه بصوت الوتريات وهي في ذروة نشوتها ، وبحيرات خضراء معتصرة من جوف البحر الأزرق العظيم الفاتر . شعاع ضوء تجمد في الفضاء بعد أن مرروه خلال وعاء من البللور مليء بالنبيذ الكوفي ، الذي بدءوا في تعتيقه منذ مليون سنة ضوئية . فلو أن أمينة هنا لأقسمت أن هذا صوت الملائكة وقد تنزل كورال منها ليبارك حديقتنا الصغيرة الطاهرة . هذه أسهل عندها من أن تعترف بأن هذا هو صوت الشجر يسمعه وقتما يشاء لمن يشاء من أحبابه . وأنا واثق من أن ليها قد قالت

الليلة كلاماً ضاع في هذا الزحام ، حيث وقفت تداعب بجذورها هيكلاً
موني المثابرة إلى الأبد .

ونبرة معدنية ميزتها أذني وسط كل تلك الأصوات ، وماذا يمنع
النمل من أن يشترك هو الآخر في الرقة من أعماق جحوره الرطبة المظلمة ؟
وهذا الصوت الآخر الرقيق الشجي ، مثل قطرة ندى أو بقعة ضوء ترقص
تحت تماراً ، المتسلل إلى القلب من خلال غلالة رقيقة من الرقيق ،
من يمكن أن يصدره سوى الفراشة الصغيرة البيضاء ؟

وفي الفضاء البعيد صدى مرتعش لضحكة صغيرة لا خشة ولا
ناعمة ، مصحوبة بدعوة لي باكتمال العقل . وأصوات أخرى غريبة
بدأت تتطفل على المعزوفة وتفسد جلالها ، فلعله يحسن بي أن أنهض
للنوم بعد أن أرشف القطرة الأخيرة في الكوب الخزف البني . نعم يحسن
بي أن أنهض وبسرعة قبل أن أتورط في مهاترة سوقية مع ذلك الصوت
الذي أسمعه آتياً من بعيد وهو يقول لي بضحكته الوقحة أن هاوً مع أو .

:: سهر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

المحتويات

صفحة	
٤	تقديم
	الفصل الأول :
١٠	الفراشة البيضاء
	الفصل الثاني :
١٨	أمنية وحمادة وفيدو
	الفصل الثالث :
٢٦	رينا والنخلة وذكر البط
	الفصل الرابع :
٣٤	فضيحة في عالم الحداث
	الفصل الخامس :
٤٠	فضيحة الهدد
	الفصل السادس :
٤٦	بجانب المدفأة
	الفصل السابع :
٥٤	موني

الفصل الثامن :

الشجرة الغريبة ٦٢

الفصل التاسع :

فيدو يتشمس - رسالة حمادة والدوخة ٦٦

الفصل العاشر :

الولد يلعب ٧٢

الفصل الحادي عشر :

موني والصفدعة ٧٦

الفصل الثاني عشر :

رينا والملاك الحارس ٨٢

الفصل الثالث عشر :

موت شحاتة ٨٨

الفصل الرابع عشر :

أمنية في السرير وشاي بالياسمين ٩٤

الفصل الخامس عشر :

القطة والسحلية ١٠٠

الفصل السادس عشر :

الياسمين على البساط ١٠٤

الفصل السابع عشر :

فرس النبي ١١٠

الفصل الثامن عشر :

النمل وأمي وجمعة ١١٨

الفصل التاسع عشر :

موت فيدو ١٢٤

الفصل العشرون :

من هي الشجرة ؟ ١٣٠

الفصل الحادي والعشرون :

المقطوع العظيم ١٣٦

الفصل الثاني والعشرون :

النهاية ١٤٤